802.7303
H86dA

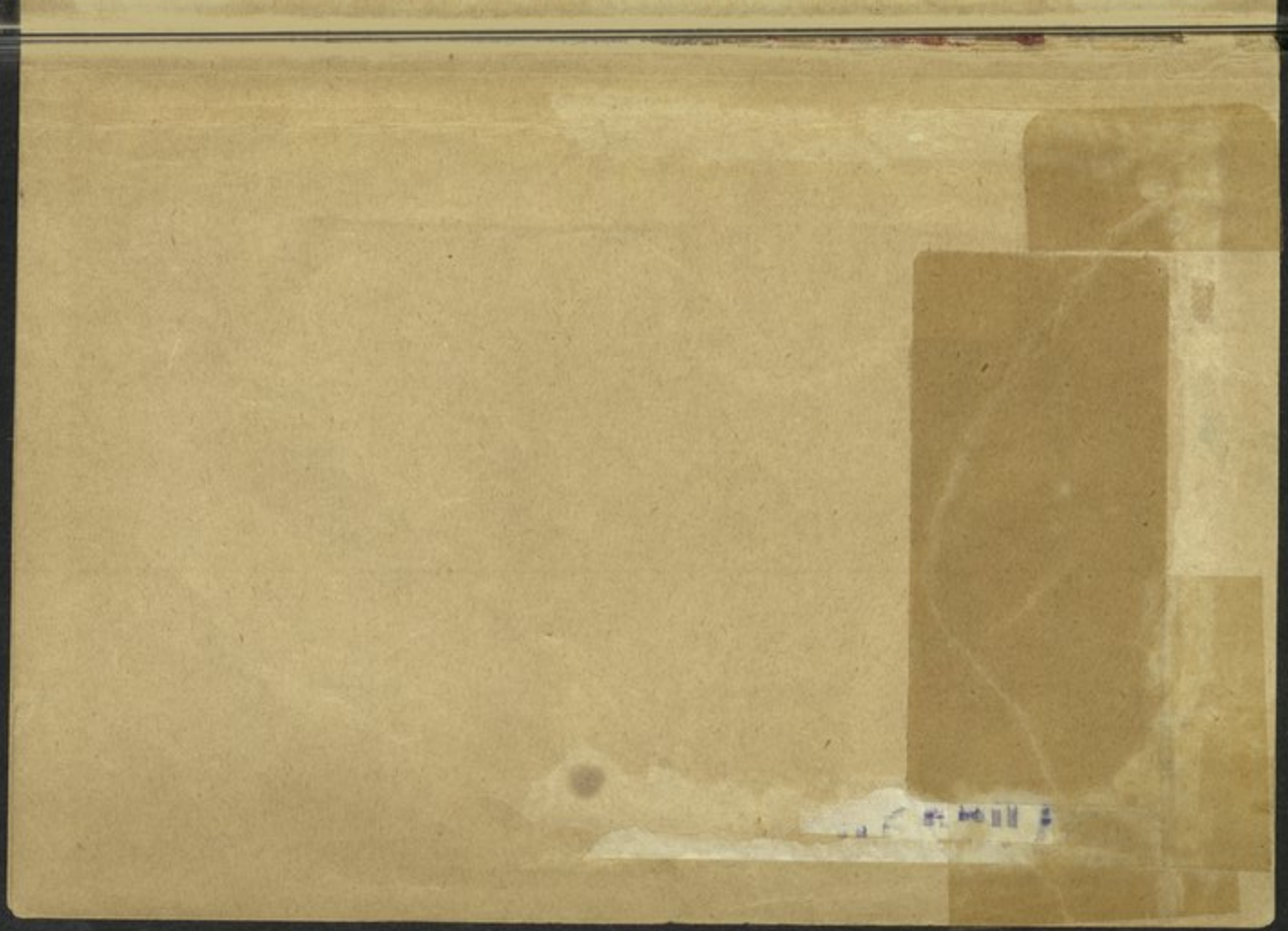

LIBRARY

فهرس

الثعبان	٧
حديث الاوز	١٥
قسوة	٢٢
ثعلب	٢٩
شياطين البيان	٣٦
الطفل	٤٥
الظلال الهائمة	٥٣
غلطة	٥٩
الشجاع	٦٧
سمير الليل	٧٥
طيف	٨٣
أم خفيف	٩٠
الغانيات	٩٧
البرق الخاطف	١٠٥
حديث القلوب	١١٣
أضغاث أحلام	١٢٠
ضمير حائر	١٢٩
مدرسة الذباب	٣٧

الثعبان

كان مشرق الوجه ، باسم الثغر ، خفيف الحركة ، فصيح اللسان لا يكاد يجلس الى احد او يجلس اليه احد ، الا احس جليسه منه قلبا يضطرب تحمسا للاصلاح ، ونفسا تتوثب الى المثل العليا ، وعقلا لا يرى حوله الا شرا ولا يريد ان يطمئن او يستقر الا اذا ازيل هذا الشر ومحيت آثاره ومعالمه ، وقام مقامه هذا الخير المطلق الذى يشمل كل انسان ، وكل شىء ، والذى يسبغ على من يشمله وما يشمله جمالا حلوا هادئا ، ولكنه قوى ملح كانه ضوء الشمس ، لا يمنح الاشياء والاحياء جمالا وبهاء فحسب ولكنه يبعث فيها وفيهم حياة وخصبا وقوة ونشاطا .

وكان تحمسه للاصلاح وطموحه الى الخير ودعاؤه الى العدل يخرج به احيانا كثيرة عن طوره ، ويتجاوز به الهدوء المألوف الى شىء من العنف لم يكن المصريون يعرفونه فى ذلك الوقت ، واذا هو لا يستقر فى مكانه مهما يكن هذا المكان فى دار او ناد او قهوة او ديوان ، وانما يثب من مجلسه ثم لا يثبت فى مقامه

ليتحدث الى من حوله كما يتحدث الخطيب ، وانما يذهب ويجيء ويأتي من الحركات بيديه ما كان يخيف جلساءه على ما قد يكون حوله من الاشياء ، واذا آية الغضب تظهر فى وجهه ، قوية حادة فيظلم بعد اشراق ويعبس بعد ابتسام ، ويتطاير من عينيه المضطربتين شرر مخيف ، وينفجر من فمه صوت هائل يهدر بالجمل التى تتتابع سراعا فى مثل قصف الموج وعصف الريح العاتيه ، واذا اصحابه يأخذهم شيء من الدهش لا يلبث ان يستحيل الى وجوم متصل وذهول غريب ، لا يدرون اهما يصوران الاعجاب والرضى ام هما يصوران الانكار والسخط ام هما يصوران الحذر والخوف

وكان من الحق ان يحذروا او يخافوا ، فلم تكن الامور فى ذلك الوقت تجرى فى مصر كما اخذت تجرى منذ كان فى مصر استقلال وحرية ودستور وبرلمان ، وانما كانت الامور تسعى متعثرة لا تكاد تنهض الا لكبو ولا تكاد تمضى الا لتقف فقد كان فى مصر احتلال اجنبى يتغلغل سلطانه الظاهر والخفى فى جميع المرافق العامة والخاصة ، وكان فى مصر سلطان وطنى شديد الارتياب عظيم الاحتياط كثير التلون يميل الى المواطنين مرة والى المحتلين مرة اخرى ، ويحاول احيانا ان يرضى اولئك وهؤلاء ، فلا يظفر الا بغضب اولئك وهؤلاء

وكان هذا كله يفسد الجو المصرى ويجعله خانقا منهكا للقوى لان الناس كانوا موضوع النزاع بين هاتين السلطتين لا يكادون يرضون احداهما الا وفى نفسهم اشفاق من الاخرى ، وكان لكل واحدة من هاتين السلطتين عيونها وجواسيسها قد انبثوا فى الاندية والقهوات والدواوين واندسوا فى المجالس الخاصة . فهم يحصون على الناس ما يقولون ثم يصورونه كما يحبون ، ثم يرفعونه الى السلطان الاجنبى او الى السلطان الوطنى . واذا آثار ذلك

واضحة فيما يكون من رضى هذا السلطان او ذاك ومن غضب هذا السلطان او ذاك. فكان المفكرون وذوو الرأى يعيشون فى قلق متصل كانما كانوا يسعون على الشوك فليس غريبا ان يثير صاحبنا فى نفوس جلسائه شيئا من الحذر والخوف اذا اخذته ازمنة الاصلاحية تلك ، وكانت كثيرا ماتأخذه فيثور ، او قل يستحيل الى ثورة تريد ان تلتهم كل شيء

وكان صاحبنا حديث عهد بأوربا قد اقام فيها اعواما متصلة واتم فيها درسه ورأى فيها حياتها الحرة الطامحة التى لا تقيدها اوضاع النظام الاجتماعى كما كانت تقيد الحياة المصرية فى ذلك الوقت. ولا تغلها اغلال السلطان السياسى كما كانت تغل حياة المصريين فى ذلك الوقت ايضا ، وانما رأى حياة سمحة طلقة قد عرفت للانسان كرامته وللفرد حقه فى ان يأتى ويدع من الامر مايشاء. وفى ان يرى ويقول مايشاء مادام لا يؤذى غيره بقول او عمل . وقد شارك فى هذه الحياة واستمتع بما كانت تمتاز به من السماح واليسر. وكان كغيره من المصريين الذين يعيشون فى اوربا لا يكاد يرى شيئا يعرفه او ينكره الا وازن بينه وبين مايشبهه فى الحياة المصرية من قريب او بعيد ، وكانت هذه الموازنة تغيظه وتحفظه بالطبع لانها كانت تضطره دائما الى ان يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن فى اوربا رقيا ماديا ومعنويا ، وبأن لاهل اوربا حرية فى القول والعمل . وبأن مصر بعيدة كل البعد من هذا الرقى وبأن المصريين قد حرموا هذه الحرية كل الحرمان. فعاد الى مصر وللغيظ فى قلبه نار تتوهج وللغيرة على نفسه سلطان لايكاد يهدىء من ثورته او فورته ، ومن جل ذلك كان صورة ناطقة حية قوية للسخط على كل شيء والضيق بكل شيء والحرص على تغيير كل شيء . وقد اقبل الشباب عليه حين عاد من اوربا معجبين بل مفتونين . ولكنهم لم يلبثوا ان فتروا ثم تفرقوا شيئا فشيئا ،

منهم من رده عنه الخـــوف ، ومنهم من رده عنه القصور ، ومنهم من رده عنه السام. ولا بدمن الاعتراف بان احاديث صاحبنا على عنفها وثورتها كانت تغمض احيانا فيعجز أوساط المثقفين عن فهمها ، وكانت تتكرر احياناأخرى فيسأم السامعون لها من كثرة تكرارها . واكبر الظن ان صاحبنا عاد من اوربا دون ان يتعمق من امرها شـــيئا وانماغرته المظاهر فاعجب بها وخدعته هـــذه الحضارة الاوربيـــة ففتن بها ، ورأى فى هذا الاعجاب وفى هذه الفتنة شيئا من الامتيـــاز يتملق كبرياءه فاغرق فيهما اغراقا شديدا . وقد كان ما لم يكن بد من وقوعه فنذر به السلطان واشفق منه ونصب له شـــيئامن كيد خفى حاول ان يثبت له وينفذ منه ولكنه لم يســـتطع ثباتا ولانفوذا فاضطر الى ان يرجع ادراجه ويعود الى اوربا هـــذه التى ملكت عليه قلبه ونفســـه وفتنته بمحاسنها فتونا . ولم يكد يستقر فى اوربا حتى دهمته الحرب الماضية فأقام فيها ماشاءالله ان يقيم والظاهر انه انتفع بهذه الاقامة الثانية انتفاعا عظيمافقد عاد من اوربا بعد الثـــورة المصرية الاخيرة فراى مالم يكن ينتظر ان يرى . لم ير تغـــيرا فى الحضارة المادية ولم ير تطورا ذا بال فى الحياة العقلية ولـــكنه راى حرية لم يكن له بها عهد ، حرية لا تحفل بمكر الاحتـــلال الاجنبى ولا باحتياط السلطان الوطنى ولا بالعيـــون والجواسيس ، ولا بالاحكام العرفية الانجليزية التى ظلت مفروضة على مصر اعواما بعـــدانتهاء الحرب. ولا بهذا الاصطدام العنيف الذى كان يحـــدث من حين الى حين بين الشـــباب المصريين والجنود البريطانيين . راى حرية لاتحفـــل بشىء مـــن هذا ، وانما تمضى امامها لاتلوى عـــلى شىء ولا يردها شىء ولا تزيدها العقبات والمصـــاعب الا قوة واندفاعا . ورأى المصريين يقـــولون فى كل شىء لايتحفظون ولا يتحرجون ، ورآهم ينكرون من امرهم اكثر مما كان ينكر هو قبل الحرب فهم لايرضـــون

عن الاحتلال الاجنبى ، وهم لايرضون عن النظام السياسى الوطنى ، وهم لايطمئنون الى حياتهم الاجتماعية ، وانما يخرجون عليها فى رفق مرة وفى عنف مرة اخرى ، وهم على كل حال يتوثبون الى الاصلاح ، ويطمحون الى المثل العليا ، لايتحدثون اذا لقى بعضهم بعضا الا فى الحق والخير والعدل والحرية والاستقلال والرقى فى الحياة المادية والعقلية

راى هذا كله فوقف منه موقف الحيرة لم يدر ايرضى عنه أم يسخط عليه . ولو انه جرى مع طبيعته الاولى لرضى كل الرضا عما راى ولمضى مع مواطنيه جادا فى الاصلاح طامحا الى الرقى مطالبا بالاستقلال . ولكن اقامته فى اوربا اثناء الحرب واحتماله ماجرته الحرب على الناس من خطوب ، وما القت عليهم من اثقال قد اضطره الى شىء من المرونة وسعة الحيلة وبذل الجهود الملتوية ليتقى الشر ان عرض الشر وليلتمس الخير ان سنح الخير ، فعاد من اوربا للمرة الثانية وقد خلقته الحرب خلقا جديدا . كان قبل الحرب يسبق مواطنيه الى الرقى والطموح . فاصبح بعد الحرب يتاخر عن مواطنيه ولايكاد يشاركهم فى توثبهم الى الرقى والطموح . ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه سيرة وسطا فهو لا يستطيع ان ينكر ماضيه وهو لايستطيع ان يقاوم هذا الاندفاع المصرى الجارف الى التطور العنيف وهو فى الوقت نفسه لايحب ان يشارك مواطنيه فيلهج كما يلهجون بالحرية ، ويحرص كما يحرصون على الاستقلال ويطمع كما يطمعون فى مجاراة اوربا حينا ومقاومتها حينا آخر . وقد زاده حرصا على هذه السيرة الوسط انه قد تعب فى اوربا وشقى بما لقى فيها من جهد وضيق ، وعاد الى مصر وفى نفسه ميل الى الدعة وحاجة شديدة الى الراحة . ورغبه ملحة فى ان يعوض الوقت الذى اضاعه فى اوربا ، وان يستدرك من امره مافات ويحقق لنفسه من المنافع العاجلة والآجلة مالم يستطع تحقيقه حين كان ثائرا فائرا مطالبا بالاصلاح . وقد راى

المصريين قد انقسموا فيما بينهم قسمين ، فريق يعتدل ، وفريق يتطرف فلم يرد ان يعتدل مع المعتدلين، فيعد مستاخرا ولا ان يتطرف مع المتطرفين فيتكلف مايتكلفون من الجهد ويحتمل مايحتملون من العناء . وقد رسم له هذا كله سيرته انوسط فعرف الثورة المصرية ولم ينكرها ، واثنى عليها ولم يشارك فيها ، واتخذ نفسه الاصدقاء والاخلاء من المعتدلين والمتطرفين جميعا . ولم يقبل فى ذلك مراجعة ولا لوما. فان الصداقة ترتفع عن السياسة واعراضها وامراضها والرجل الحر حقا هو الذى لاتلهيه السياسة عن ارضاء حاجة قلبه الى الاخاء الكريم والمودة الصافية والوفاء المتين

وكذلك كنت تراه فى مجالس المعتدلين يسمع منهم ولا يرد عليهم الا قليلا وكنت تراه فى مجالس المتطرفين ، يسمع منهم ولا يجاريهم الا بمقدار ، وكنت تراه فى كل حفل يقيمه المعتدلون وفى كل حفل يقيمه المتطرفون يشهد الحفلين جميعا لان له الاصدقاء والاخلاء بين اولئك وهؤلاء . ولكنه كان ماهرا اشد المهارة فى الاستخفاء حين الجد وحين تبدى الخطوب عن نواجذها لاولئك اوهؤلاء . هنالك يلتمس القوم صاحبنا فلا يجدونه ولا يقفون له على اثر . وهنالك يسأل القوم عن صاحبنا اهل المعرفة فلا يحدثهم عن ثابت لاق كما يقول الشاعر القديم حتى اذا هدات العاصفة ، واستقرت الامور فى نصابها واطمانت القلوب فى الصدور، نظر المعتدلون والمتطرفون فاذا صاحبنا يغدو بينهم ويروح كعهدهم به دائما مشرق الوجه باسم الثغر عذب اللفظ حلو الحديث

وقد استطاع من الامر مالم يستطعه من المصريين الا الاقلون عددا فارضى المحافظين والمسرفين فى المحافظة بنوع خاص، وارضى المجددين والغلاة فى التجديد بنوع خاص . ثم جعلت الاحوال تحول والامور تتغير وتتابعت المحن على مصر ، وكان الطبيعى حين

تمتحن مصر فى آمالها وأمانيها وفى حريتها الداخلية والخارجية أن يتطرف المعتدل ويجدد المحافظ ان كان صادقا فى اعتداله ومحافظته لايتأثر فيهما بالمنفعة ولا يتقى بهما الخوف

ولكن صاحبنا لم يتطرف وقد تطرف المعتدلون من حوله ، ولم يجدد وقد جدد المحافظون من حوله ، وانما ظل كعهده دائما مشرق الوجه باسم الثغر خفيف الحركة عذب اللفظ حلو الحديث .

وربما احس المحافظون المصريون على المحافظة منه ميلا اليهم ، وحرصا على ان تتصل اسبابه باسبابهم ، ولكن على شرط الا تنقطع اسباب المودة والاخاء بينه وبين المتطرفين ، من الحقائق المقررة ان صلات الود والاخاء يجب ان ترتفع عن اختلاف الرأى فى السياسة والنظم الاجتماعية . وقد تلقاه المحافظون حفيين به مستبشرين بقربه منهم واتصاله بهم واغضى عنه المتطرفون لانه صاحب وفاء يرتفع بالصداقة عن اغراض السياسة وامراضها . ثم اصبحت المحافظة فى بعض الاوقات لونا من الوان الحفاظ والغيرة على مصالح الوطن وكرامته واصبح من البدع المحبوب ان يتحدث الناس بانهم محافظون وان يسرفوا فى النعى على المتطرفين فاظهر صاحبنا انه محافظ يذكر مجد الوطن ويحرص على تقاليده وينكر الخروج على النظام المألوف والسنة الموروثة ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يقصر فى ذات اصدقائه المتطرفين وانما جاملهم حين كانت تحسن المجاملة وواساهم حين كانت تحسن المواساة ، وضمن بذلك رضاهم عنه واغضاءهم عن غلوه فى المحافظة ، وفى ضوء هذا كله مضت اموره على خير مايجب . شجعه المحافظون حين كان السلطان يصير اليهم ، واغضى عنه المتطرفون حين كان السلطان يستقر فيهم ، وعرف عامة الناس وخاصتهم انه رجل لايحب

الاحزاب ولا يشارك في سياستها ،وان كان محافظ الميل قديم الهوى معتدل السيرة والرأى جميعا

قلت لصاحبى اتستطيع ان تحدثنى بما تريد اليه من هذه القصة التى لاتنتهى . قال صاحبى لا أريد الا الى شيء يسير جدا وهو ان الذين يريدون العافية وقضاء المارب وتحقيق المصالح ، وتجنب الاذى فى انفسهم وامالهم واعمالهم يحسن ان يسيروا سيرة هذا الرجل البارع. قلت لصاحبى : ليس كل الناس يقدر على ان يكون ثعبانا وليس من الخير ان تكثر فى مصر الثعابين

حديث الأوز

وانا اعتذر الى القراء من هذا العنوان الظريف الطريف الذى لم اكن احب ان اصطنعه على ما فيه من طرافة وظرف لانه اشبه باحاديث الفكاهة والمزاح ، لا باحاديث الجد المر الذى يجب ان نحرص عليه حين نأخذ فى شئون التعليم

ولكن صديقا اديبا من اصدقائنا الادباء اراد ان يتحدث عن نشر التعليم فضرب الاوز له مثلا ، يذهب فى ذلك مذهب الفكاهة الساخرة ، وان كانت شئون التعليم فى هذه الايام لا تحتمل فكاهة ولا سمرا

تحدث الصديق الاديب ان صاحبه جحا زعم لقاضى المدينة انه يستطيع ان يأتى بتسع عشرة اوزة فيحبسهن فى حجرة من الحجرات ، ثم يدخل عليهن عشرين رجلا فلا يخرج واحد من هؤلاء الرجال الا ومعه واحدة من هؤلاء الاوز . وقد انكر القاضى هذا الحديث لما بين هذين العددين من الاختلاف . ولكن جحا الح فيه واصر عليه ، فاضطر القاضى الى ان يستجيب له . واقبل جحا بأوزه التسع عشرة وادخل القاضى عليهن

عشرين رجلا كان بينهم صراع وقراع سالت له الدماء وشاهت له الوجوه ، ثم جعل الرجال يخرجون رجلا فى اثر رجل ومع كل واحد منهم اوزته حتى خرج آخرهم ، وليس له شيء ، فلما سال القاضى جحا عن معجزته ، أباه بانه لم يرد الا عبثا ليبين له وللناس ان الديموقراطية الصحيحة لا تحدث المعجزات ولا تخلق المستحيلات

والمغزى الذي قصد اليه الصديق الاديب هو ان الذين يريدون ان ينشروا التعليم بغير حساب ، وان يحشروا الاعداد الضخمة فى الاماكن الضيقة ، انما يذهبون مذهب جحا حين اراد ان يقسم التسع عشرة اوزة قسمة سواء على عشرين رجلا فلم يبلغ من ذلك ما اراد

والمثل كما ترى رائع ، بارع وقاصم ، فاصم لا تقوم له حجة ولا يثبت له دليل ، فليست الديمقراطية اذن كلاما يقال ولا هى دعوة تنشر وتذاع ، وانما هى اعمال يقدم عليها اصحابها عن بصيرة ويحققونها عن روية . وليس يكفى ان يقال للناس كلوا لياكلوا ويأمنوا شر الجوع . وليس يكفى ان يقال للناس تعلموا ليتعلموا ويأمنوا شر الجهل ، وانما ينبغى ان يهيأ الطعام على قدر الطاعمين وان يهيأ العلم على قدر المتعلمين فان لم تفعل كانت دعوتنا الى الطعام والعلم اشبه بعبث جحا حين اراد ان يقسم تسع عشرة اوزة على عشرين رجلا قسمة سواء

ومن قبل الصديق الاديب ضربت للتعليم امثال اخرى تتصل بالطعام فقال قائلون ان الذين ينشرون العلم بغير حساب ويحشرون الاعداد الضخمة فى الاماكن الضيقة كالذين يلقون الطعام القليل الى الجماعة الكثيرة . فما هى الا ان يلقى هذا الطعام حتى يكون الزحام والخصام والاصطدام ثم يفترق الناس وقد آذى بعضهم بعضا ولم يظفر بالطعام منهم الا قليل .

والغريب ان يقال مثل هذا الكلام فى هذه الايام التى تواجه

الحكومات مشكلة التموين ومعضلة الطعام القليل يلقى الى الجماعات الضخمة من الناس.. ولا يفكر الذين يقولون هذا الكلام ويكتبونه فى ان حوادث حياتهم اليومية تنقض ما يقولون نقضا . فان الحكومة انما قامت لتجرى الامور بين الناس بالقسط، وتقضى بينهم بالحق وتمكن كل واحد منهم من ان ياخذ نصيبه الضئيل من الطعام القليل لا يعدو فى ذلك بعضهم على بعض ولا يظلم القوى منهم فى ذلك الضعيف ، وليس المهم ان تنجح الحكومة فى ذلك او تخفق وان تعدل الحكومة فى ذلك او تجور ، وانما المهم انها انشئت لتجرى امور الناس بينهم بالقسط ولتطعم عشرين رجلا من تسع عشرة اوزة، والخطأ الذى انحرف فيه جحا عن الصواب ولم يكن للقاضى ان يجاريه فيه هو انه اراد ان يقسم التسع عشرة اوزة على العشرين قسمة سواء، ولو انه اصلح الاوز وهياه للطعام لجاز ان يغذى بهن مائة او مئات من الناس دون ان يقع بين هؤلاء الناس صراع او قراع ، ولكن جحا لم يكن مصريا ولا عربيا ، وربما كان له حظ من دعابه ، ولكنها دعابة غير عاقلة . ولو قد كان جحا مصريا عربيا نعرف ان فى مصر امة تمتاز بخصلتين احداهما القناعة والرضى بالقليل، والاخرى الايمان بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات .

وليس كل مصرى حريصا على ان ياخذ اوزة صحيحة حية يفرح بها فى بيته وينظر اليها تذهب وتجىء تبسط جناحيها وتقبضها وترسل فى الهواء صوتها الذى يطرد الملائكه ويدعو الشياطين كما يقول اهل الريف . ليس كل مصرى حريصا على ان يظفر بين حين وحين بجزء اوزة عظيم او ضئيل بل ليس كل مصرى حريصا على ان يذوق طعم الاوز او يشم ريحه، وانما المصريون قوم قانعون اكثرهم يرى الاوز ويسمع عنه ، ولكنه لا يبلو طعمه ولا يعرف له مذاقا

وهو على ذلك لا ينكر الحياة ولا يضيق بها ولا يسخط عليها فان اتيح له قليل من لحم الاوزاو من مرقه او من ريحه حمد الله واثنى عليه، وشكر له هذه النعمة التى لم يكن ينتظرها ولا يرجوها

وقد اراد الله بالمصريين خيرا فلم يجعل العلم اوزا ، ولم يجعل الاوز علما ، وانما جعل العلم شيئا كهذا الهواء الذى يمتلىء به الجو ويستطيع الناس جميعا ان يتنفسوا، وجعل العلم شيئا كهذا الماء الذى يفيض به النيل ويستطيع الناس جميعا ان يشربوه ، وقد يكون الهواء نقيا وقد تكدره رمال الصحراء ، فالناس يتنفسونه على كل حال .. وقد يكون الماء صفوا وقد تشوبه الجراثيم فالناس يشربونه على كل حال . وقد يكون الطعام كثيرا وقد يكون قليلا وقد يكون صالحا وقد يكون رديئا، فالناس يأكلونه على كل حال لانهم لا يريدون ان يموتوا مختنقين ولا ان يموتوا ظامئين ولا ان يموتوا جائعين ، وقد تكون المدرسة واسعة وقد تكون ضيقة ، وقد يكون الاستاذ ممتازا وقد يكون معتدل الحظ من الامتياز ، وقد يكون الكتاب ميسرا وقد يكون معسرا ، ولكن الناس يتعلمون على كل حال لانهم لا يريدون ان يعيشوا جاهلين ، ومكان وزارة المعارف فى مصر كمكان وزارة التموين . فما رأى جحا التركى ان قيل له ان فى مصر طعاما يكفى لتغذية نصف المصريين وان نصفهم الاخر يموت جوعا

وما راى جحا التركى ان قيل لوزارة التموين ان فى مصر كساء يكفى لنصف المصريين فيجب ان يكتسى نصفهم وان يظل نصفهم الآخر ضاحيا عاريا . وما راى وزير التموين ان قيل له مثل هذا الكلام ؟ وما راى البرلمان ان قال له وزير التموين مثل هذا الكلام . واى النصفين من المصريين يستطيع ان ياكل وان يكتسى فيعيش ، واى النصفين من المصريين يجب ان يجوع ، وان يعرى فيموت . اما جحا التركى فلن يرى باسا فى ان

يأكل القادر على أن يشترى الطعام ، ويكتسى القادر على أن يشترى الثياب ويموت الذين لايقدرون على ان يشتروا طعاما ولا ثيابا . وليس على احد من ذلك بأس فالله قد قسم الحظوظ بين الناس فجعل بعضهم غنيا يستطيع ان يشترى الغذاء والكساء ، وجعل بعضهم معدما لايستطيع ان يجد غذاء ولاكساء

ولكن وزارة التموين لاتذهب نحسن الحظ هذا المذهب الآثم وانما تفعل ماتستطيع ليجد الفقراء والاغنياء مايقيم الاود ويستر الجسم وهى تغذو الاعداد الضخمة بالقليل من الطعام وتكسو الاعداد الضخمة بالقليل من الثياب توفق احيانا ويخطئها التوفيق احيانا اخرى والفرق بين جحا المصرى وجحا التركى بسيط جدا فجحا المصرى لايفرق بين العلم والطعام وجحا التركى يرى أن من حق الناس ان يأكلوا ويشربوا ويعيشوا ولا بأس عليهم من ان يجهلوا ويخضعوا لافات الجهل فيمتاز بعضهم من بعض ويتفوق بعضهم بعضا ، ويصبح بعضهم لبعض عبيدا وتبعا

وقد نشأ المصريون على الوان من العقائد يحدثهم بها جحا المصرى مصبحا وممسيا . فهو يحدثهم بان النبى صلى الله عليه وسلم قد اطعم الاعداد الضخمة من اصحابه حتى اشبعهم بالقليل الضئيل من الطعام الذى لم يكن يكفى الا لتغذية الرجلين او الثلاثة ، وهو يحدثهم بان الله قد انزل على عيسى مائدة من السماء كانت عيدا لاولهم وآخرهم ، وهو يحدثهم بان فى الف ليلة وليلة أوزا لا كالاوز ، ودجاجا لا كالدجاج تؤكل الواحدة منها حتى لايبقى الا عظمها . قد جرد من كل ماكان عليه من اللحم ثم يجمع هذا العظم فى طبق من الاطباق ويقال له كلام فينتفض بقدرة الله ويعود كهيأته قبل ان يؤكل اوزا ودجاجا يستطيع ان يجد فيه الجائع شبعا ولذة . فمصدر هذا كله

ان جحا المصرى يؤمن بانبركة من جهة ويؤمن بالعدل من جهة اخرى ، ويرى من اجل ذلك ان القليل يجب ان يكفى الكثير وان الناس كلهم لآدم وان آدم من تراب وانهم جميعا من اجل ذلك سواء فى الحقوق والواجبات يجب ان ياكلوا ويشربوا ويتنفسوا ويتعلموا لايمتاز بعضهم من بعض الا بالتقوى والاعمال الصالحات التى هى خير عند ربك ثوابا وخير مردا

فانت ترى فرقا بين التعليم الذى يعلمه جحا المصرى للمصريين والتعليم لدى يلقيه اليهم جحا التركى من مدرسته تلك فى جمبولاد . وقد اراد الله ان يفهم المصريون لغة المصريين والا يفهم لغة التركى منهم ، الا افراد قليلون وهم من اجل ذلك لا يشبهون التعليم بوز جحا التركى ، وانما يشبهونه بهذه المائدة التى انزلها الله من لسماء فكانت عيدا للناس ولهم وآخرهم وبهذا الطعام القليل الضئيل الذى اشبع منه النبى صلى الله عليه وسلم مئات من صحابه ثم تركه كاملا موفورا ، وبهذا الوز الذى تحدثنا عنه الف ليلة وليلة بانه ينفد ليتجدد ، ويفنى ليبقى ويموت ليحيا

وهم يريدون من علمائهم وادبائهم ووزرائهم وشيوخهم ونوابهم وقادة انراى فيهم ان يؤمنوا مثلهم بهذه الايات ، ولا ييأسوا من روح الله فانه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون. وهم يريدون من علمائهم وادبائهم وقادة الراى فيهم ان يعرضوا عن هذا الهزل الى الجد ، وعن الباطل الى الحق . وان يعلموا المصريين ماوجدوا الى تعليمهم سبيلا فى المدارس الواسعة وفى المدارس الضيقة وفى الهواء الطلق على الكراسى الوثيرة وعلى الكراسى الخشنة وعلى الحصر وعلى الارض العراء ، لانهم يرون الجهل حريقا يلتهم النفوس والقلوب ، ويجب ان يطفأ مهما تكن الوسائل التى تتخذ لاطفائه

وهم يريدون من علمائهم وادبائهم وقادة الرأى فيهم ان يقولوا للدولة انفقى وانفقى عن سعة فان لم تتح لك الميزانية ما تريدينه فافرضى الضرائب فى غير تردد وفى غير مهل . وعلمى حتى لايبقى فى مصر جاهل ولاغافل ولا معرض للاستغلال مهما يكن المستغل والاستذلال مهما يكن المستذل ، والتسلط مهما يكن المتسلطون ، وانه لمن المؤلم المؤذى حقا ان يحتاج المصريون الى ان يقولوا هذا للعلماء والادباء وقادة الرأى

وقد سرت على المصريين ايام كانوا يساقون فيها الى المدارس بقوة السلطان ويدفعون اليها دفعا بالاكراه ويفرون بابنائهم من التعليم . فقد انعكست الاية وتغيرت الايام واصبح الجاهلون يطلبون العلم فيردهم عنه العلماء، فاذا انحوا فى ذلك سيقت اليهم احاديث الاوز وقصت عليهم قصص جحا وعبثه فى جمبولاد

كلا ايها السادة ، يجب ان يخلص العلماء للعلم واول مراتب الاخلاص له ان ينشروه بكل وسيلة وان يذيعوه من كل سبيل والا يكونوا كهذا البخيل الذى يقول فيه بشار :

وللبخيل على امواله علل زرق العيون عليها اوجه سود

قسوة

فى مصر ظاهرة غريبة لست أدرى أتوجد فى غيرها من البلاد أم لا توجد ؟ واكبر الظن انها ظاهرة طبيعية فى البلاد التى لم يتم تطورها بعد ، ولم تتحضر قلوب فريق من ابنائها تحضرا صحيحا ، وانما اتخذت من الحضارة غشاء رقيقا يخفى وراءه جاهلية جهلاء ، وقسوة قاسية منكرة . وهذه الظاهرة هى قسوة الذين لهم باللين عهد حديث ، وغلظة الذين ادركتهم النعمة بعد ان ذاقوا الم الشقاء وبلوا مرارة البؤس والحرمان . ينشأ احدهم . كما تنشأ الكثرة الضخمة من الشعب المصرى فى اسرة شقية بائسة او فى اسرة متوسطة متواضعة ، فيتكلف اهله ما يتكلفون من الجهد ويحتمل ابواه ما يحتملان من المشقة والعناء ليرفعاه الى حال خير من حالهما ولينزلاه منزلة ارقى من منزلتهما وفيه هو ما فى الكثرة الضخمة من الشعب المصرى من هذا الذكاء الحاد والعقل الخصب والطموح الى الخير والقدرة على الجد ، فما يزال الابوان يكدحان ويشقيان وما يزال هو يكد ويجد ، وما يزال التعاون بين كدح الاسرة وجد الفتى الناشىء

يؤتى ثمره قليلا قليلا ، حتى يبلغ الفتى بعض ما ارادت له الاسرة او كل ما ارادت له الاسرة وبعض ما اراد لنفسه او كل ما اراد لنفسه ، وان كانت حاجة من عاش لا تنقضى كما يقول الشاعر القديم . واذا صاحبنا فتى موفق موفور قد بلغ من لين الحياة وخفض العيش ما لم تبلغ اسرته، فعلم وكانت اسرته جاهلة ونعم وكانت اسرته بائسة ، وابتسم وكانت اسرته عابسة ، واستقبل الحياة فى رجاء كثير وامل واسع، فجعل لا يرقى الى درجة الا طمع فى ان يرقى الى درجه اعلى منها وجعل لا يظفر بخير الا حرص على ان يبلغ خيرا اكثر منه ، واصبحت الحياة بالقياس اليه ميدان سباق الى التفوق لا ميدان جهاد لكسب القوت

هنالك يتنكر لماضيه القريب وينسى تلك الدموع التى سكبتها الامهات فى كثير من مواطن البؤس والشقاء ، وذلك العرق الذى سكبه فى كثير من مواطن الجد والعمل ، وتلك المواقف الحرجة التى وقفتها الاسرة فى كثير من مواطن الازمه والضيق ، والتى كانت ترده عن المدرسة لان الاسرة لم تكن تملك المصروفات وكادت تضطره الى الجهل والخمول لان الاسرة لم تكن تجد ما تنفق على نفسها فضلا عن ان تجد ما تنفق عليه . ولكن الام نزلت عن اخر ما بقى لها من الحلى او استغنت عن بعض ما فى بيتها من المتاع ، ولكن الاب ضاعف الجهد ووصل الليل بالنهار فى العمل واراق ماء وجهه عند فلان او فلان يقترض منه مقدارا ضئيلا او ضخما من المال، واستطاعت الاسرة بفضل هذا الشقاء المتصل والعذاب الاليم ان تحل الازمة وتخرج من الحرج ، وتؤدى المصروفات وتقوم له بما يحتاج اليه ليمضى فى درسه وادعا مطمئنا ناعم العين رضى البال . ولعل الاسرة لم تتعرض لهذا الحرج مرة واحدة ولا مرتين ، وانما تعرضت له مرات ومرات حتى اتم الفتى درسه وبلغ ما ارادت له الاسرة وما اراده هو لنفسه

ينسى هذا كله نسيانا يسيرا سهلا. ينساه بالقياس الى نفسه فيحسب انه قد نشأ فى النعمة والرخاء ، وان ليس له بالضنك والضيق عهد . وينساه بالقياس الى أسرته فيحسب انها لم تقدم اليه شيئا ، لم تشق ليسعد ، ولم تكد ليستريح بالنعيم . ثم هو ينساه بالقياس الى الجيل الناشىء فلا يفكر فى ان بين هؤلاء الاطفال والصبية الذين يبسمون فتبتسم الحياة ، والذين يمرحون فيشيع من حولهم الرضى والغبطة ، مئات ومئات انما يشتقون ابتساماتهم هذه الحلوة من عبوس الاباء والامهات ، وانما يشتقون ضحكهم هذا المرح من حزن الاباء والامهات كما كان هو يشتق ابتسامه ومرحه من عبوس ابويه وحزنهما فى العهد القديم

ينسى هذا كله نسيانا ويجهله جهلا وتمحوه الحياة من قلبه محوا قاسيا. فاذا هو يرى الناس كلهم ناعمين كما ينعم ، راضين كما يرضى ، قادرين على الانفاق كما هو يقدر على الانفاق ، ليس عليهم الا ان يريدوا ليظفروا ، وليس عليهم الا ان يضعوا ايديهم فى جيوبهم ليجدوا ما يحتاج اليه ابناؤهم من هذه النفقات التى تزداد كلما تقدمت الايام . يرى نفسه موفورا فيحسب الناس كلهم موفورين ويجد نفسه سعيدا فيحسب الناس كلهم سعداء . وهو من هنا قاس اشد القسوة ، عنيف اشد العنف ، ينظر الى الرحمة على انها خور فى الطبيعة كما كان يراها وزير عربى قديم وينظر الى العدل على انه قوة فى يد الدولة ترفع بها من تشاء الى حيث تشاء ، وتخفض بها من تشاء الى حيث تشاء .

ثم ينظر الى الحياة على انها جهاد لاينال خيرها الا بالكد والجد والعناء كما يتصور هو الكد والجد والعناء . وهو على ذلك صورة عابسة لدولة عابسه لاشر فيها ولا رضى ، ولا رفق فيها ولا ابتسام ، انما هى القسوة المنكرة والعنف المسلط على الرءوس والنفوس

وعلى كل شيء من حوله حتى تستحيل الحياة جحيما او شيئا يشبه الجحيم .

وانت تستطيع ان تنظر في حياتنا العامة على اختلاف فروعها فسترى كبارا يقسون على صغار لانهم نسوا انفسهم او قل نسوا ماضيهم، ولم يذكروا انهم كانوا صغارا وانهم شقوا بهذه القسوة من كبار الجيل الماضي ، وان الحق عليهم لانفسهم وللناس ان يمحوا هذا الشقاء ويجنبوا الجيل الناشيء ما شقي به الجيل الماضي ، لا ان يثاروا لانفسهم من الابرياء، فكثير من هؤلاء الكبار القساة انما يصطنعون القسوة متاثرين بشعور عميق خفي هو شعور الحاجة الى التشفي والانتقام لكثرة ماذاقوا من الشدة والجهد حين كانوا صغارا .

وشر من هؤلاء قوم قست عليهم الحياة ورفقت بهم الدولة فاعانت اسرهم على تربيتهم وتعليمهم ومكنتهم من ان يتموا الدرس على أحسن وجه ، ويتقلبوا في المناصب حتى تصير اليهم الامور ، واذا هم ينسون في وقت واحد قسوة الحياة عليهم فيقسون على الناس ، ورفق الدولة بهم فلا يرفقون بأحد . أخذوا لانفسهم ما استطاعوا من لين الحياة . وهم يأخذون لانفسهم وسيأخذون لانفسهم ما يستطيعون من لين الحياة، ولكنهم لا يعطون شيئا، لا من ذات ايديهم ولا مما في يد الدولة لانهم انما نعموا بالحياة وينعمون بها من حيث انهم ممتازون قد اشتقوا من عناصر ممتازة ، وهم ليسوا كغيرهم من الناس ولا ينبغي ان يشبه بهم الناس من قريب او بعيد . وصدق الله العظيم في قوله الكريم « ويل للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون . الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

كل هذه الخواطر الحزينة الشاحبة التي تملأ النفس بؤسا

وحزنا ومرارة ، وانما تخطر لى فى هذه الايام حين تنتهى اجازة الصيف ويستقبل الناس العام الدراسى الجديد . من شأن هذه الايام أن تكون أيام ابتهاج حلو واكتئاب هادىء لامرارة فيه . من شأنها ان تكون ايام ابتهاج لان الاطفال والصبية والفتيان يستقبلون عامهم الدراسى الجديد الذى سيملأه النشاط الخصب فتنمو عقولهم واخلاقهم واجسامهم : ويخطون الى الرجولة خطوات مباركة ترقبها الاسر سعيدة مبتهجة .

ومن شأن هذه الايام ان تكون أيام اكتئاب هادىء لامرارة فيه لان الاطفال والصبية والفتيان سيفارقون الاسر الى حيث معاهدهم العلمية فتحزن الاسر شيئا ولكنه حزن باسم ان صح ان يبتسم الحزن، ويحزن التلاميذ والطلاب شيئا ، ولكنه حزن قصير رقيق لايلبث ان تمحوه حياة الدرس . ولكن هذه الايام عندنا ليست ايام ابتهاج باسم واكتئاب هادىء ، وانما هى أيام الحزن الممض والشقاء الملح والعذاب الاليم والصراع بين القدرة والعجز وبين الامل واليأس وبين القوة والضعف، وهى الايام التى يجب أن يشقى فيها الاباء والامهات ليجدوا لابنائهم ماينفقون وليؤدوا عنهم اجور التعليم . واجور التعليم فى مصر ليست سهلة ولا يسيرة ، وانما هى اجور ثقيلة عسيرة قد فرضت على اساس ان الامة غنية او ان التعليم حق للاغنياء دون غيرهم من الناس . وأين يجد الاباء مايحتاج اليه ابناؤهم من نفقة يعيشون بها فى عاصمة الدولة او فى عواصم الاقاليم . واين يجد الاباء مايؤدون الى وزارة المعارف او الى الجامعة ليتعلم ابناؤهم . يجب اذن ان تنزل الامهات عما بقى لهن من حلى وعن بعض مافى بيوتهن من متاع ، ويجب ان يريق الآباء بعض مافى وجوههم من ماء ليقترضوا من هنا وهناك مايعينهم على تعليم أبنائهم

ما أروع نظامنا الاجتماعى فى تكدير الحياة ومن حقها ان تصفو ، وفى تنغيص العيش ومن حقه ان يكون حلوا رقيقا

ان الطالب الاوربى ينفق اكثر ايام الطلب لا يكلف اهله شيئا من نفقات التعليم لان الدولة تعلمه بلا اجر . فاذا اتم تعليمه الثانوى واراد الاتصال بالجامعة فهو فى بعض البلاد لايكلف اهله شيئا لان الدولة تعلمه فى الجامعة بغير اجر ، وهو فى بعض البلاد الاخرى لايكلف اهله شيئا يذكر لان الجامعة تاخذ منه اجرا صوريا . فليعلم المصريون ان مصروفات التعليم فى كليات الآداب والعلوم فى فرنسا مثلا لاتزيد على سبعين قرشا مصريا فى العام اى انها لاتبلغ مايدفعه الطلاب عندنا رسما للمكتبة والاتحاد . فأما مصروفات التعليم عندنا فيعرفها الآباء الذين يسعون ويعرفها الامهات اللائى ينزلن عما لهن من حلى او عن بعض مافى بيوتهن من متاع . ويعرفها رجال وزارة المعارف ورجال الجامعتين الذين تعلمت كثرتهم الكثيرة على حساب الدولة بالمجانية فى مصر وفى اوربا لان الدولة كانت محتاجة الى المتعلمين ثم هم الآن يقاومون المجانية ماوجدوا الى مقاومتها سبيلا ويحتالون فى التخلص منها ، يسلكون الى ذلك الطرق الملتوية اذا لم يستطيعوا ان يسلكوا اليها الطرق المستقيمة . يرفعون نفقات الطعام والكتاب ويحسبون انهم يحتفظون بالمجانية

ويحكم ايها الناس ، ومن اين لغير الاغنياء باثمان الطعام والكتب التى تطلبونها . لاتنظروا الى انفسكم الان ولكن انظروا الى انفسكم حين كنتم صبية واطفالا وفتيانا . واذكروا كيف كانت اسركم تشقى بدفع المصروفات ، وكيف كانت اسركم تسعد ان اتيحت لكم المجانية ، واجتهدوا فى ان تجنبوا اسر هذا الجيل ما احتملت اسركم من شقاء ، واجتهدوا فى ان تتيحوا لاسر هذا الجيل ماأتيح لاسركم من السعادة حين ظفرتم بالمجانية . واحذروا ان تكونوا من الذين قال الله فيهم : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون »

اللهم اشهد انى ماذهبت قط الى الجامعة او الى وزارة المعارف الا كانت هذه القصة ملء قلبى ، والا ذكرت انى كنت سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة، فمن الحق على ان اتيح بعض هذه السعادة لاكبر عدد ممكن من شباب مصر ولو استطعت لاتحتها لهم جميعا

ومن يدرى فما لم نستطعه امس قد نستطيعه غدا ولابد من ان يبلغ الكتاب أجله ولابد لمصر من ان تظفر بحقها من العدل فى يوم من الايام

ثعلب

لو رايته قبل عشرين سنة يا سيدتى لما انكرت منظره هذا الغريب، حين رايته يقبل متدحرجا كانه البرمة الهائلة، لم ترتفع فى الجو كثيرا ولكنها اتسعت عن يمين وشمال، وامتدت من خلف وامام. وهى تسعى مع ذلك خفيفة لا تكاد الارض تحس لها ثقلا لانها اتخذت من لحم وعظم، ولم تتخذ من حجر وصخر

لو رايته قبل عشرين سنة يا سيدتى لما انكرت منظره هذا الغريب حين اقبل فحيا ثم تقدم يسعى حتى اذا بلغ مكانه جلس وكانه الكثيب المنهال فكان الناظر اليه يسأل نفسه لاول وهلة ايرى انسانا جالسا ام يرى كومة من الرمل، قد استخفى فيها شخص ضئيل لا يكاد يظهر منه الا تقاطيع وجهه ضئيلة غائرة خليقة الا ترى. لولا هذا الصوت الذى يخرج منها ضئيلا نحيلا، ولولا هذا الشرر الذى يتطاير من عينين صغيرتين لا تفتح عنهما الجفون الا فى بطء بطىء وثقل ثقيل كانما تشد بخيط قد ركب فى قفاه، وقام شخص من ورائه يجذبه متكلفا بين حين وحين

فلم تكن هذه حاله قبل ٢٠ سنه وانما كان فتى نحيفا ضعيفا

ونحيلا ضئيلا رشيق الحركة كثير الاضطراب لا يعرف السعى الهادىء ولا المشى المطمئن، وانما كان يجرى على الارض او كان يجرى فوق الارض، كأنه شيء من هذه الحيوانات الصغيرة الخفيفة التى ملئت نشاطا وقوة وحياة وانى تريد ان تطير فى الجو لولا ان الله لم يرزقها جناحين

ولم تكن هذه حاله اذا انتقل من حيز الى حيز فحسب . وانما كانت هذه حاله ايضا اذا استقر فى مكان واقبل على عمل من الاعمال. فقد كان متحركا دائما مضطربا دائما، لاتكاد العين تلحظه الا رات شيئا من شخصه يتحرك، فوجهه ملتفت مرة الى يمين ومرة الى شمال . وراسه يرتفع حينا او ينخفض حينا آخر ويداه تذهبان وتجيئان، ورجلاه تداعبان الارض مداعبة متصلة ، ولسانه لا يكاد يستقر فى فمه وانما هو متحرك دائما ببعض القول ، ولم يكن شخصه المعنوى اقل حركة واضطرابا من شخصه المادى ، فقد كان عقله مفكرا دائما ، وكان قلبه متوثبا دائما ، وكان انطلاق لسانه فى فمه مصورا دائما لهذا العقل الذى لا ينى فى التفكير ، ولهذا القلب الذى لا يفتر عن الشعور . وكان على هذا كله ، ولهذا كله، ومع هذا كله لا ادرى، متوقد الذهن حاد الذكاء لا تعرض له مسألة من المسائل الا سبق اترابه الى تعمقها والنفوذ الى دقائقها واستخراج ما كان يمكن ان يستخرج منها ، وكان على ذلك او لذلك او مع ذلك لا ادرى ، ماكرا شديد المكر عابثا غاليا فى العبث، حتى احبه اترابه اشد الحب وخافوه اعظم الخوف ، احبوه لذكائه وخفته وخافوه لتفوقه ولحيلته هذه الواسعه وعبثه هذا المتصل ودعابته هذه التى لا تنقضى

وكانوا يسمونه فيما بينهم الثعلب ، وربما بهرهم مكره وتعاظمتهم حيلته الواسعة فسموه الثعلبان . يرون فى هذه الصيغة خطأ او صوابا مبالغة فيما يريدون ان يخلعوا عليه من صفات الثعلب من الخفة والرشاقة ومن المكر والدهاء

ولم يكن أترابه من التلاميذ وحدهم هم الذين يعجبون به ويعجبون منه وانما كان اساتذته كذلك يكبرون ذكاءه ويقدرون نشاطه ويرضون عن جده في الدرس واجتهاده في التحصيل واسراعه الى الاجابة كلما القى سؤال وتفوقه في الامتحان مهما يكن عسيرا وهم من أجل ذلك كانوا يرعونه ويتعهدونه بالسؤال عنه والتشجيع له والتتبع لتقدمه في الدرس حتى كانه كان ابنا لكل واحد منهم . وكان اعجاب رفاقه به ورعاية اساتذته له يشعرانه الرضى عن نفسه والثقة بها ، ويملآن قلبه املا حلوا في مستقبل باسم سعيد . وكان مع ذلك من اسرة متواضعة اشد التواضع ، ضيقة الحال اشد الضيق ، تجد الجهد كل الجهد في كسب القوت فضلا عما تحتاج اليه من مرافق الحياة . وكان الصبي يرى ذلك ويشقى بآثاره ولكنه لم يكن يحفل به كثيرا لانه كان راضيا عن نفسه واثقا بها ، مطمئنا الى امله الباسم الحلو ومستقبله الرضي السعيد . وقد اتم الدرس الابتدائي وهم اهله ان يصرفوه عن التعليم ليوجهوه الى بعض العمل لعله يعينهم على بعض ما يلقونه من البؤس ويشقون به من الضيق ولكن الصبي بكى واغرق في البكاء حتى رقت له امه ورثى له ابوه . وتكلفت الاسرة ما تكلفت فجد الاب في الكسب وخرجت الام عما بقي لها من حلية ، وتوسط بعض اساتذته في اعفائه من اجر التعليم فظفر بالمجانية ، ومرق من التعليم الثانوي كما يمرق السهم من الرمية . لم تعرض له عقبة الا ذللها ولا صعوبة الا قهرها ، لم يعرف الرسوب في الامتحان ، ولم يعرف التخلف عن الاقران ، وانما كان السابق المتفوق دائما حتى اذا انقضت تلك الاعوام الثلاثة التي كان التلاميذ ينفقونها في التعليم الثانوي كان الفتى قد جمع شهادتين من شهادات الحكومة كما كان ابوه يقول لامه اذا خلا اليها . وكما كانت امه تقول لصاحباتها اذا تحدثت اليهن ..

وكان ابوه حريصا اشد الحرص على ان يضاعف الجد والكد ، وكانت امه شديدة الحرص على ان تلتمس عملا كريما فى اسرة كريمه ، ليستطيع الفتى ان يمضى فى درسه حتى يظفر بالشهادة الثالثة. وانما هى اعوام تنفق فى هذه المدرسة او تلك من المدارس العليا ليصبح الفتى رجلا متفوقا ممتازا يستطيع ان يطمح الى مناصب المتفوقين الممتازين بين رجال الدولة الذين يحلون ويعقدون وينقضون ويبرمون . ولكن لله فى خلقه حكمة بالغة لا يعرف كنهها ولا تدرك اسرارها ، فلم يكد يتقدم الصيف فى ذلك العام حتى اعتل ابو الفتى اياما ، ثم تقطعت به اسباب الحياة واسباب الامل جميعا ففارق هذه الدار ولم ينعم بما كان يتمنى به من ظفر ابنه بالشهادة الثالثة واشتغاله بخدمة الحكومة فى منصب من هذه المناصب الممتازة التى لا يظفر بها الا المتفوقون الممتازون . ولم ير الفتى بدا من ان يتلمس العمل ليحيا ولتحيا امه ، وفى الشهادة الثانوية مقنع للشاب الذى يريد عملا متوسطا بل فى الشهادة الابتدائية مقنع فى ذلك الوقت للصبى الذى يريد عملا متواضعا ، وما هى الا ان يسعى الفتى ، ويعينه بعض اساتذته فى هذا السعى ، واذا هو يظفر بمنصب متوسط فى بعض الدواوين ، وقد ضمن لامه ولنفسه الغذاء والكساء كما يقال فى هذه الايام ، ولكن الفتى حول يحسن مقارعة الدهر لا يسد عليه مسلك من مسالك الحياة الا فتح له مسلك آخر من مسالكها كما يقول الشاعر القديم . والتعليم فى ذلك الوقت ميسر اكثر مما هو فى هذه الايام لقلة المتعلمين وشدة الحاجة اليهم . فما يمنع صاحبنا ان يختلف الى الديوان وجه النهار والى مدرسة المعلمين آخره ، وقد فعل . وما هى الا اعوام حتى يبشر امه انه قد نال الشهادة الثالثة . واذا عمله يتغير واجره يرتفع واذا هو لا يقنع لامه ونفسه بالغذاء والكساء وانما يضيف اليهما شيئا من طيبات الحياة ، وقد جعل رضى الفتى عن نفسه

يشتد ، وجعلت ثقة الفتى بنفسه تزداد ، وجعل الامل يهدى اليه ابتسامات فيها شيء من سعة ، وجعل المستقبل يدعوه باشارات فيها شيء من الحاح . وقد سأل الفتى نفسه ما الذى يمنعه من أن يختلف الى عمله وجه النهار والى مدرسة الحقوق آخره ، وما الذى يرغبه عن ذلك وليس له ارب فى هذه الحياة الفارغة التى يحياها اترابه من الشبان اذا تقدم النهار . وقد فعل ، وما هى الا اعوام حتى يقبل الفتى سعيدا محبورا فينبىء امه بانه قد ظفر بالشهادة الرابعة . والشيخة راضية لان ابنها يرقى ويرقى ، ويكدس الشهادات لنفسه تكديسا ، والشيخة محزونة لان زوجها لا يشاركها فى هذا الرضى ولا يشاطرها هذا النعيم . والفتى مقبل على ايامه ينتهبها انتهابا وقد زاد رضاه عن نفسه وثقته بها ، وقد زاد ابتسام الامل له سعة واشتد دعاء المستقبل عليه الحاحا ، وهو يسأل نفسه لم لا يظفر بشهادة خامسة . وبشر امه ذات يوم بانه قد ظفر بهذه الشهادة الخامسة ولكنه انباها فى الوقت نفسه بنبأ مزق قلبها تمزيقا واجرى دموعها على خديها غزارا . فقد عرفت له الدولة نبوغه وقدرت تفوقه . ورات ان الشهادة السادسة يجب ان تضاف الى الشهادات الخمس وان هذه الشهادة السادسة لا تطلب فى مصر ، وانما هى بعيدة ، بعيدة ، يعبر لها البحر ، وتطلب من بلاد الانجليز . ولم يكن الفتى اقل من الدولة اعترافا بنبوغه ولا اقرارا بحقه فى الظفر بالشهادة السادسة ، والعلم يطلب ولو فى الصين ، والشهادات تطلب ولو فى بلاد الانجليز . ولا يتقدم الصيف حتى يكون الثعلب قد هيأ نفسه للرحلة البعيدة ، والغياب الطويل وقد غاب ما غاب ، ثم آب ومعه الشهادة السادسة والشهادة السابعة واذا هو رجل مرموق مومق ، لا يذكر الا اكبره ذاكروه ، ولا يرى الا اشير اليه بالبنان . هذا فلان ، اترى الى فلان ، انه ذو الشهادات السبع

وقد اكبرته الدولة ، وعرفت له حقه وحق شهاداته هذه الكثيرة التى يمكن أن تبسط على جدار من جدران مكتبه فتكسوه كله بهذا الورق الجميل يملأه الثناء الجميل. وقد رضى الفتى عن نفسه كل الرضى ،ووثق بها كل الثقة ، ولكنه زهد فى الشهادات كل الزهد وادركه شىء يشبه التخمة ، فاتجه نشاطه اتجاها آخر ملائما كل الملاءمة لطبيعة الحياة المصرية فى ذلك الوقت

فقد كانت الثورة المصرية قد غيرت اشياء كثيرة من امور الناس، ومن امور الحكم، ومن امور المستقبل الذى يطمع فيه الشباب . نشأ نظام الاحزاب ونشأ الصراع بين هذه الاحزاب . ونشأت الفرص الكثيرة التى ينتهزها الاذكياء ليستفيدوا من صراع الاحزاب . ونظر الثعلب ذات يوم فاذا الحياة المصرية كلها تلقى فى نفسه انه قد خلق للفوز وان الفوز قد خلق له، لان الحياة المصرية لم تكن فى وقت من الاوقات ملائمة لخفة الثعالب ورشاقتها وذكائها ونهمها منها فى هذه الايام . وما ينبغى لمن يريد الفوز فى هذه العواصف العاصفة وفى هذه المصالح المشتبكة والخصومات المتصلة والمنافع المعقدة الا ان يكون فطنا ، وصاحبنا شديد الفطنة ، لبقا ،وصاحبنا عظيم الحظ من اللباقة ، خفيفا ، وصاحبنا اخف من النسيم ، ماكرا ، وصاحبنا امكر من المراة، صامتا، وصاحبنا اشد صمتا من الصخرة الصماء . وقد ينبغى ان يضيف المرء الى هذه الخصال ليبلغ مايجب من الفوز ، خصلة اخرى تشتق من هذه الخصال جميعا ؛ فيتلطف حتى يشعر الاحزاب جميعا انها جميعا محتاجة اليه ، وحتى يشعر المرافق العامة جميعا بانها كلها تستطيع ان تنتفع به . وحتى يشعر الساسة جميعا بانه رجل فن لا رجل سياسة . وقد استطاع صاحبنا ان يبلغ من هذه الخصال كلها ما اراد .

فقد كان ثعلبا فى المدرسة الابتدائية وكان ثعلبا فى المدرسة الثانوية وكان ثعلبا فى الدواوين التى اختلف اليها وجه النهار وفى المدارس التى اختلف اليها آخره (١) وكان ثعلبا فى بلاد الانجليز وعد منها اشد اغراقا فى خصال الثعلب. ومكنته شهاداته السبع من ان يتثعلب فى فروع مختلفة من فروع العلم والمعرفة.

واذا الاحزاب كلها عنه راضية وبه معجبة واليه محتاجة ولكنه فقد من خصال الثعلب خصلة واحدة هى التى حملتك ياسيدتى على ان تضحكى منه حين رايته يقبل كانه البرمة الضخمة وحين رايته يجلس فينهال كما ينهال الكثيب

ذلك ان الايام احبته حبا شديدا، فاخذت لايمر به يوم منها الا خلع عليه قميصا من الشحم قد فصل على قده تفصيلا وجعلت هذه الثياب الشحمية تتراكم وتتراكب حتى مدته الى يمين والى شمال، وزادته بسطة فى الجسم من خلف ومن امام، وجعلته كما ترين جبلا يتحرك فى خفة ويعمل فى ذكاء

قالت السيدة وكانت اديبة اريبة، ارجو ان لايكون ثعلبك هذا الغليظ من ثعالب المتنبى التى يقول فيها:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمنا وما تفنى العناقيد

شياطين الكبار

صدقني ياسيدي اولا تصدقني لن يغني هذا عن الحق شيئا ، والحق الواقع ، وهو ان هذه القصة ليست مخترعة ولا مصطنعة وليس للخيال فيها اثر قليل او كثير ، وانما هي شيء وقع ، كما ان من الاشياء الواقعة اني قد خرجت من داري حين ارتفع الضحى فسعيت اليك متثاقلا استمتع بهذا الجو الرائق ، وبهذه الشمس الفاترة ، وبهذا النسيم البارد الرقراق ، واديرُ في نفسي ماوقع لي من الامر ، واستعرض بعض الصور التي اريد ان اصطنعها لاقصه عليك . واجيل في نفسي ايضا ما سيكون بينك وبيني من اخذ ورد مستنكرا على حديثي وساحاول اقناعك بانه صحيح وسيشتد بينك وبيني خصام لا بد من ان يثور بيننا كلما حدثتك ببعض الامر . لانك رجل لا تؤمن الا بما ترى وتحس . ولا تصدق من انباء الناس الا قليلا .

ولست اخفي عليك اني اعذرك ولا الومك فقصتي لا تخلو من غرابه ، وآية ذلك اني انا نفسي انكرتها اشد الإنكار وكنت واثقا كل الثقة بانني رايتها فيما يرى النائم ، وكنت اتحدث الى

نفسى بأنها حلم غريب ، طريف ،وكنت التمس العلة لهذا الحلم وكنت اجدها فى غير مشقة ،وكنت استمتع بحلمى واستمتع بما بذلت فى تعليله من جهد واستمتع كذلك بماسا تحمل فى تأويله من عناء . ولكن رايتنى حين تقدم الليل وكاد ينهزم امام النهار واقفا امام دارى التمس المفتاح لاديره فيفتح لى الباب وانسل الى غرفتى فى هدوء وخفة حتى لايحس اهلى عودتى فى اخر الليل ، فلا اجد المفتاح،وقد تعودت الا اخرج مع الليل الا اخذت معى هذاالمفتاح اوفر بذلك على اهلى حريتهم وراحتهم ونومهم ، واجنبهم بذلك ان يسهروا منتظرين عودتى او ان يهبوا من نومهم حين اعود ليفتحوا لى الباب ولكن المقادير ارادت امس ان تجرى الامور على غير ماتعودت ان تجرى عليه فانسيت المفتاح وما انسانيه الاالشيطان ، وسترى ان هذا لم يكن غريبا ، فقد كانت المقادير قد قدرت ان تكون ليلتى هذه من قسمة الشياطين . والشىء الذى ليس فيه شك هو انى التمست المفتاح حيث تعودت ان احفظه فلم اجده فجعلت افتش فى جيوبى كلها وما اكثرها فلم اجده وقد ضقت بذلك اشد الضيق ، حسبت اول الامر انى قد اضعته ثم لم البث ان ذكرت انى خرجت مسرعا مع بعض الاصدقاء واعجلنى الحديث فلم ات هذه الحركة اليسيرة التى انتزع بها المفتاح من مكانه واضعه فى الجيب الذى تعودت ان اضعه فيه

فلما تبينت ذلك غشينى من الهم ماغشينى ووقفت واجما اول الامر مترددا بعد ذلك . اطرق الباب فازعج من فى الدار، ام اقوم مكانى حتى يسفر الصبح ويهب النوام ، ام اعود ادراجى فاطوف فى شوارع الحى اتلهى بهذا التطواف عن الانتظار ، وقد طال على هذا التردد فتحولت عن مكانى ولكنى لم اخرج من الحديقة وانما جعلت اطوف حول الدار واردد فى نفسى قول الشاعر القديم :

أدور ولولا ان ارى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور

ولم اكن ادور لارى أم جعفر وانما كنت ادور مخافة ان اوقظ ام جعفر او ازعجها فيكون شر فى هذه الدار التى لم تعرف الشر الا قليلا

ولست احدثك بما كان حين انجلى الصبح واشرقت الشمس وفتحت الابواب واندفعت الى غرفتى واسرعت الى مضجعى والتمست الراحة فلم اظفر منها بشىء ثم نهضت مكدودا مجدودا واقبلت اسعى اليك ولم اذق للنوم طعما فى هذه الليلة الطويلة القصيرة التى امتلأت من الامر باشده غرابة واعظمه سخفا ولولا قصة المفتاح هذه ، لما شككت فى انى رايت حلما من هذه الاحلام الكثيرة التى تعبث بنفوس الناس حين يجن عليهم الليل . ولكنك ترى انى مستيقظ منذ اشرق الصباح امس . ولعلك تذكر وما اظنك نسيت اننا قد قضينا شطرا من الليل عند صديقنا فلان نسمر حول احاديث الجن والشياطين وما تزعم العرب من انصلة التى تكون بينهم وبين الشعراء والخطباء والكتاب والذين يتعرضون لالوان البيان . وقد قال قائل منا ان العرب فى جاهليتهم واسلامهم لم يتحدثوا بما يكون بين الشياطين والخطباء والكتاب من صلات وانما زعموا ان الشياطين قد وكلوا بالشعراء خاصة حتى اذا كان ابن شهيد فى الاندلس زعم لنا فى قصته المشهورة التوابع والزوابع ان للخطباء والكتاب شياطين كما ان للشعراء شياطين . وقد قص علينا فى رسالته تلك زيارته وادى الجن وما كان من حوار بينه وبين خطباء الجن وكتابهم اولئك الذين كانوا يلهمون خطباء الانس وكتابهم ، وسمى لنا شيطان عبد الحميد الكاتب وشياطين غيره من اعلام البيان . وسمى لنا شياطين جماعة من خصومه ومنافسيه فى الفن ، وزعم لنا انه خاصمهم فخصمهم وناظرهم فتفوق عليهم . وقد اخذت بحظى من هذا السمر كما اخذتم

بحظوظكم منه فلما تفرقنا بقيت في نفسي هذه الابيات التي القاها زهير بن نمير . ذلك الدليل الجني لابن شهيد في زياراته المتصله لتلك الاندية التي كان يجتمع فيها شياطين البيان ولعلك تذكر ان زهيرا القى ابياته هذه الى صاحبه ابن شهيد وجعلها آية بينه وبينه . فكلما احتاج ابن شهيد الى صاحبه انشد هذه الابيات فيسرع اليه زهير ويجيبه من الامر الى مايريد

وقد جعلت اردد هذه الابيات في نفسي وانا امضي متباطئا الى الدار ثم لست ادري لماذا لم اكتف بادارة هذه الابيات في نفسي وانما جعلت انشدها في صوت خافت لايكاد يسمعه غيري .

والى زهير الحب ياعز انه ... اذا ذكرته الذاكرات أتاها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها ... يخيل لي اني اقبل فاها
فاغشى ديار الذاكرين وان نأت ... أجارع من داري هوى لهواها

ولكني لم اكد افرغ من انشاد البيت الثالث حتى احسست الرعدة تاخذني اخذا عنيفا كدت اهوي له الى الارض لولا اني تماسكت ، ولولا ان ذراعا قوية عصمتني من السقوط . فقد سمعت صوتا غريبا نحيلا ياخذني من جميع اقطاري وهو يقول لبيك لبيك هاند زهير بن نمير خليل شاعرك الاندلسي ابن شهيد في الزمان الاول والدهر القديم . ولست اخفي عليك اني قد انكرت من هذا الامر مثل ماتنكر ولم ترتسم على وجهي هذه الابتسامة الساخرة التي ترتسم على وجهك الآن ، وانما تقبض وجهي تقبضا شديدا وجعل العرق البارد يبل جبهتي ، وهم لساني ان يدور في فمي صائحا مستغيثا ولكني اسمع الصوت النحيل يسعى الي وكلما دنا مني زال عنه نحوله وجعل يمتلىء شيئا فشيئا وجرت فيه نغمات عذبة وهو يقول : لاباس عليك لا ترع واتل معي قول الله عز وجل « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم

بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » فقد تلا هذه الآية من قبلك جماعة من امثالك العرب حين روعوا بمثل ماتروع به الآن من لقاء اصدقائهم من الجن .

وقد سمعنى اتلو هذه الآية الكريمة مع صاحبى ثم رايتنى اثوب الى نفسى او رايت نفسى تثوب الى واذا قلبى امن كله واذا انا هادىء هدوءا لاكاد اعرفه من نفسى حين يفجئها مالا تنتظر واذا انا اسعى مع صاحبى كما تعودت ان اسعى معك فى غير وحشة ولا تكلف كانما كان بينى وبينه ود قديم قد بعد به العهد وطال عليه الزمان . ويجب ان اعترف لك بانى احسست فى ذلك الوقت ان لى شخصين مختلفين احدهما يساير صاحبى فيسمع منه ويتحدث اليه والاخر عاكف على نفسه فى ناحية من نواحى الضمير يرقب ويسمع ويرى ويحاول التحليل والتعليل ويزعم لى ان ما انا فيه انما هو لون من الوان الحلم لاعرض من اعراض اليقظة ولكنى شغلت عن هذا الشخص الذى انتبذ ناحية من نواحى الضمير بهذا الرفيق الذى جعل يتحدث الى بالاعاجيب. فقد كان يقول لى : صدقنى ان هذا العلم الذى اخذه قدماؤكم عن اليونان واخذه محدثوكم عن الاوربيين قد افسد عليكم شيئا كثيرا واشاع فى نفوسكم فنا من الكبرياء والغرور حرمكم متاعا لاحد له . فانتم تنكرون ما كان يعرفه قدماؤكم من معاشرة الجن ومخالفه شياطين الفن فاذ تحدث اليكم ابو العلاء بشىء من ذلك فى رسالة الغفران او اذا تحدث اليكم ابن شهيد بشىء من ذلك فى رسالة التوابع والزوابع لم تصدقوه ولم تطمئنوا اليه وانما استمعتم به فى شىء من السخرية والتكذيب على انه من آثار الخيال وفن من فنون الصنعة وما ابعد الفرق بين من يستمتع بالخيال المخترع ومن يستمتع بالحق الواقع الذى لا شك فيه . وانكم تنكرون المصادفة وتردون كل شىء الى ما تسمونه الاصول والقوانين

فردوا الاشياء الى ماتريدون ولكن اعترف بان المصادفة وحدها هى التى انطقتك بهذه الابيات ، فاذا انا استجيب لك مسرعا لاجدد معك ذلك العهد القديم الذى كان بينى وبين ابن شهيد شاعر الاندلس وخطيبها وكاتبها . وانت من غير شك حريص كما حرص ابن شهيد على ان تفر من حياة الناس لحظات طوال او قصارا دون ان تقطع الصلة بينك وبينهم وانما تراهم فى شياطينهم او ترى شياطينهم وهم يزينون ماسيملاون به قلوبهم ويحركون به السنتهم ويجرون به اقلامهم من الوان القول

وقد زرت ابن شهيد على ظهر جواد اصيل ، اما انت فقد ظهرت لك فجاة لم تدر انجمت لك من الارض ام هبطت عليك من السماء وما اظنك تنكر من ذلك شيئا . . فانتم لاتتخذون الخيل الان اداة للانتقال وانما تنتقلون فى سياراتكم وطياراتكم وقطاراتكم هذه التى تخيلون الى انفسكم انكم قد احدثتم بها المعجزات وابتكرتم بها الاعاجيب ، واظنك توافقنى على اننا معشر الجن اقدر منكم على اختراع الطرائف وابتكار الاعاجيب واين تقع طرائفكم واعاجيبكم مما كنا ناتى به من الطرائف والاعاجيب فى عهد سليمان عليه السلام . واذا كنتم قد بلغتم ما بلغتم من المهارة والبراعة فى عشرين قرنا فاحرى ان نبلغ نحن من المهارة والبراعة فى هذا الامد الطويل بالقياس اليكم ، القصير بالقياس الينا مالا يخطر لكم على بال

وما اريد ان اشق عليك ولا ان اكلفك من الامر مالا تحب وانما اريد ان ازور معك ناديا من انديتنا هذه التى يجتمع فيها شياطين البيان وان اظهرك عليهم حين يخلو بعضهم الى بعض وقد فارقوا قرناءهم من كتاب الانس حين تقدم الليل واوى كتاب الانس الى مضاجعهم واقبل شياطينهم الى ناديهم يجدون حينا ويعبثون فى اكثر الاحيان . وهممت ان ارد على صاحبى رجع

حديثه ولكنى أراني فى قصر فخم ضخم لاادرى انقلت انا اليه أم نقل هو الى ولكنى اجد نفسى فيه دون ان اتكلف لذلك سعيا او حركة واسمع صاحبى زهيرا يقول متضاحكا : قد يخيل اليك ان هذا النادى فى ضاحية من ضواحى القاهرة كهذه الاندية التى تنبث حول مدينتكم هذه الصغيرة ولكن لاتجزع نفسك فان بينك وبين القاهرة امادا لاتقطعها السيارات ولا الطيارات ولا القطارات ، ولولا انى رفيق بك وفى لك لاظهرتك على بعض مابينك وبين القاهرة من أمد . ولكن اخشى ان أروعك ، فاعد معى تلاوة الاية الكريمة « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » وانا اتلو معه الآية الكريمة واجد الطمانينة والامن واهم ان اتحدث الى صاحبى ولكنه يبتدرنى بالحديث فيقول :

تعلم ان هذا النادى الذى انت فيه مقصور على شياطين البيان الذين يلوذون بادبائكم انتم المصريين دون غيرهم من الادباء . فلن ترى فى هذا القصر الا قرينا لكاتب او شاعر او خطيب من هؤلاء الذين يملأون الجو فى بلدكم فصاحة وبلاغة وبيانا . فاى شيطان من هؤلاء الشياطين تحب ان ترى ولايهم تحب ان تسمع ومع ايهم تحب ان تخذق الحديث ! قلت لا ادرى فانى اعرف كتابنا وشعراءنا وخطباءنا لكثرة ما اقرا واسمع من آثارهم ولو خيرتنى لاقترحت عليك ان نزور معى ناديا من اندية الشياطين الذين يوحون الى جيل آخر من اجيال الادباء . قال زهير سبحان الله مازلت بعد غارقا فيما يغرف امثالك فيه من الوهم . انك لاتعرف كاتبا ولا شاعرا ولا خطيبا حق المعرفة حتى ترى شيطانه وتسمع منه ، لان مايلقى اليكم من آثار الادباء ليس الا صدى ضئيلا لهذا الصوت الخصب الذى ينفث فى القلوب ويطلق الالسنة ويجرى الاقلام وسترى بعد لحظات انك لاتعرف من امر ادبائكم الا يسره وانه شانا فامض معى

ولم نكد نخطو خطوات حتى دفعنا الى بهو رحب بعيد الارجاء تضطرب فيه ظلال غريبة ضئيلة وهى تتصايح وتتصاخب ويكاد بعضها يمزق بعضا لو ان الظلال يمكن ان تتمزق او يدركها البلى. وقد انفرد من بين هذه الظلال شخص غريب مرتفع فى السماء ممتد فى الفضاء كثير حركات الوجه كثير اضطراب الاعضاء لايستقر فى مكان ولا يستقر لسانه فى فمه ولا تكاد اعضاؤه تستقر فى مواضعها من جسمه ، وانما هو حركة متصلة وصياح لا ينقطع ، وقد حرص على ان لايدنو من الظلال الاخرى التى تضطرب فى البهو فتملأه دويا كدوى النحل ، وانما هو ممتاز منها دائما لا تكاد تدنو منه الا نأى عنها ولا تكاد تسعى اليه الا ارتد فى انفة وكبرياء ، وتجافى فى غلظة منكرة

قلت لصاحبى : زهير ماهذه الظلال ؟ قال ضاحكا : هى جماعة من الشياطين لم تأخذ من الفن بحظ ، ولكنها خدعت عن انفسها وملأها الغرور فقامت فى هذا البهو مضطربة صاخبة تريد ان تقتحم على شياطين الفن ناديهم فلا تبلغ من ذلك شيئا لانها ترد عن نادى الفن ردا عنيفا : وليس اضطرابها هذا الذى ترى ، وليس عجيجها هذا الذى تسمع الا مظهرا من مظاهر الغيظ وفنا من فنون الحنق وضربا من ضروب الالحاح فى قرع الابواب لعلها ان تفتح لها . قلت ، وما هذا الشخص الذى يمتاز من هذه الظلال فيأبى ان يدنو منها او ان يخلط نفسه بها ولا يؤذن له مع ذلك فى ان يتجاوز هذا البهو ، فهو يتحرك وكأنه ساكن ، ويسعى وكأنه واقف ، وينطق وكأنه صامت ، ويصخب وكأنه لايقول شيئا . قال : هذا مسيلمة الشياطين ، اراد ان يكون شيطانا من شياطين الفن فلم يستطع الا ان يكون ثرثارا مكثارا مهزارا لاحظ لقلبه من غناء ولا حظ لعقله من علم ولا حظ لضميره من حكمة ، وانما اتيح له حظ من قدرة على الاضطراب والصخب لم

يتح لغيره من هذه الظلال فهو ينأى عنها ولا يستطيع ان يقطع مابينه وبينها من الاسباب . وليس من شك فى انه يمتاز منها بعض الامتياز . ولكن ليس من شك فى ان مايراه لنفسه فنا وما يحاول ان يلقيه الى بعض من يتكثرون عندكم بالقول لايعدو ان يكون كما يروى من قول مسيلمة الانس : ياضفدع بنت ضفدع ، نقى ماتنقين اعلاك فى الماء واسفلك فى الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين

وهممت ان اتعجل صاحبى زيارة شياطين البيان ولكن ارانى فى مكانى ذاك من الطريق الى دارى واسمع صاحبى زهيرا يقول لى فى صوته النحيل الذى جعل ينأى عنى شيئا فشيئا . حسبك من ليلتك هذه مارايت فان راقتك صحبتى ، وشاقتك زيارة شياطين البيان فانشد ماكان ينشد شاعر الاندلس وكاتبها وخطيبها ابن شهيد :

والى زهير الحب ياعز انه ... اذا ذكرته الذاكرات أتاها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها ... يخيل لى انى اقبل فاها
فاغشى ديار الذاكرين وان نأت ... اجارع من دارى هوى لهواها

ثم اطرق صاحبى لحظة ورفع الى راسه وهو يقول فى صوت هادىء منكسر : صدقنى ياسيدى او لاتصدقنى فان ذلك لايغنى عن الحق شيئا . والحق الواقع الذى لاشك فيه هو انى قد رايت وسمعت كل ما احدثك به الآن

قلت متضاحكا فلا تنشد هذا الشعر مرة اخرى وانا معك فانى لست فى حاجة الى ان ارى شيطانك الاندلسى . قال وهو يضحك ضحكا فيه كثير من السخرية ، لا بأس عليك فقد انسيت ان انبئك بانه زعم لى انه لن يستجيب لانشاد هذا الشعر الا اذا كان هذا الانشاد بعد ان يتقدم القليل

الطفل

لاتقولى انه زد الى الطفولة بعد ان قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة ولم يكد يخطو فى مرحلة الشيخوخة الا خطى قصارا ، ولكن قولى ياسيدتى انه لم يخرج قط من طور الطفولة ولم يكد يعرف من الاطوار الاخرى التى يعرفها الناس والتى ذكرتها آنفا شيئاما . فانك ان قلت ذلك كان قولك ادنى الى الحق وكان رايك ادنى الى الصواب ، واضحكى ماشئت ان تضحكى فلست اكره لك الجذل والابتهاج ، ولكن الانكار برفع الراس وهز الكتفين لايغير من الحق شيئا ، كما ان الاغراق فى الضحك حتى تنهل الدموع من عينيك الجميلتين على خديك الاسيلين لن يحول الخطأ الى صواب

فانت مخطئة ياسيدتى حين تظنين انه رد الى الطفولة قبل ان يبلغ الستين او قبل ان يبلغ ارذل العمر ، وصاحبنا بعيد كل البعد عن ارذل العمر . فالذين يقولون فى تقدير سنه يقولون انه قد قارب الستين ، والذين يقتصدون فى ذلك يقولون انه لم يكد يتجاوز نصف القرن . اما هو فيخفى سنه ولعله لايعرف

من امرها شيئا فقليل من الاطفال ، ومن اطفالنا المصريين خاصة، من يعرفون اسنانهم

وانا اعلم ان الجيل الجديد قد اخذ يقلد اجيال الغرب فى الاحتفال بأعياد الميلاد . واخذ الاطفال والصبية يعرفون اسنانهم فى هذه الايام بحكم هذا التقليد ، ولكن صاحبنا ليس من صبية الجيل الجديد ، وانما هو من صبية جيل آخر قد مضى ولم يكن الناس يعرفون فيه الاميلاد النبى (صلعم) ومواند الاولياء والصالحين ، وميلاد الخديو السابق . فاما عامة الناس فكانوا يجهلون الايام التى ولدوا فيها فضلا عن ان يذكروها ذكرا منظما وان يحتفلوا بها فى كل عام . وصاحبنا لم يولد فى القاهرة ولا فى الاسكندرية ولا فى مدينة من هذه المدن التى يشتد فيها الاتصال بالاوربيين ، ويسهل فيها تبادل السنن والعادات . بل هو لم يولد فى مدينة من مدن الاقاليم التى كان يكثر فيها اليونان الذين يشتغلون بالتجارة ويلم بها الموظفون من الانجليز أيام كان الموظفون من الانجليز يطوفون فى المدن ليتعهدوا شئون الادارة والرى والتعليم وانما ولد صاحبنا فى قرية صغيرة يسيرة من قرى الريف ، لايكاد سكانها يتجاوزون بضع عشرة مئة ولا تكاد هى تمتاز عن امثالها من قرى الريف المصرى فى أواخر القرن الماضى ، حين كان الحديث عن القاهرة والاسكندرية يملأ النفوس روعة واعجابا كانه الحديث عن الاساطير ، وحين كانت المدن فى الاقاليم لاتبلغ الا على ظهور الابل او على ظهور الحمير ، وحين كان الناس فى القرى لايحفلون بتسجيل ابنائهم وبناتهم ، حين يولدون وانما كانوا يتركون ذلك للداية تبلغه او لاتبلغه الى الحكومة تذكره مرة وتنساه مرة اخرى ، تهتم له مرة وتعرض عنه مرة اخرى . فليس غريبا ان يجهل صاحبنا سنه وليس غريبا ان يجهل الناس معه هذه السن

وانت تنكرين ان يجتمع على الرجل الواحد هذان الشيئان المتناقضان ، فيكون له جسم الشيخ وتكون له كل الخصائص الظاهرة التى يمتاز بها الشيوخ ، ثم يكون مع ذلك طفلا لم يمر باطوار الصبا والشباب والكهولة . وهذا غريب من غير شك ، ولكن من الذى قال ان الغرائب لاتوجد فى هذه الحياة ، ومن الذى يستطيع ان ينكر ان من الناس من تنمو اجسامهم نموا مطردا مالوفا وتختلف عليها الاطوار المعروفة التى يمر الناس بها فى حياتهم ولكن نفوسهم تبقى مع ذلك محتفظة بطورها الاول قد انتهت الى حد من النمو لم تستطع ان تتجاوزه الى غيره من الاطوار

وليس من شك فى ان جسم صاحبنا قد نما وتطور كما ترين فعليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه شيب وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته ، وهذه التجاعيد الاخرى التى تمتد حول انفه من يمين ومن شمال ، وهاتان العينان اللتان لا تنفرج عنهما الجفون الا فى شىء من الجهد ، حتى يخيل الى من يراه وقد اغمض جفنيه وتحدث او تحرك انه انسان يحيا من وراء ستار ، وهاتان الشفتان المنفرجتان اللتان لاتجتمعان الا فى شىء من العناء ، سواء تكلم صاحبنا او لبث صامتا ، وهذا التهدل والترهل فى وجهه الضخم وجسمه الذى يريد الشحم ان يكسوه فلا يستطيع ، وهذه الحركات البطيئة المتكسرة والمتعسرة التى تخيل الى من يراها انها تصدر عن مجموعة عصبية قد شملها لفتور واخذ يشيع فيها الفناء وهذا الصوت المحطم الذى لايكاد السامع يسمعه حتى يستحضر اناء من الزجاج واناء من الفخار قد اصابه شق يسير فهو لا يرسل الصوت اذا مس الا حدثنا بهذا الانحطام ، وهذا التنفس السريع الذى يتبع بعضه بعضا فى غير اناة ، كأنه تنفس المكدود المجهود

والذى يسمعه القريب من مصدره والبعيد عنه كانه يخرج من انف قد كثرت فيه الاعشاب فهو لاينفذ من بينها الا نفوذا عسيرا .

كل هذه مظاهر تدل على ان صاحبنا قد كان طفلا وصبيا وقد كان شابا وكهلا ، وهو الآن شيخ يخضع لما يخضع له الشيوخ من اعراض الضعف والفناء ولكن التحدث اليه والاستماع منه والاخذ معه فى فنون الحوار كل ذلك يصور لنا صبياكسلا لم يتجاوز طورالصبا . فهذا هو الذى قد خيل اليك ياسيدتى انه رد الى الطفولة قبل الاوان ، ومصدر هذا انك لم تعرفيه الا منذ وقت قصير . فأما انا فقد عرفته منذ اعوام طوال لا اعدها لك لانى لست فى حاجة الى ان تعرفى عددها . ولكنى عرفته حين كنت شابا وحين كان جسمه فى طور الشباب . ثم عرفته حين تقدمت بنا السن وحين اختلفت علينا ظروف الحياة وتجاربها وحين عرضت لنا المشكلات والخطوب ، وانا اراه الآن فلا انكر منه شيئا . لانى عرفته دائما فى هذه الحال التى ترينها ولانى ضحكت منه دائما مع اترابنا كما تضحكين انت منه الآن ، ولانى قلت فيه دائما لاترابنا وسمعت فيه دائما من اترابنا هذه الجملة : مازال فلان طفلا ويظهر انه سيظل طفلا مهما تقدم به السن ومهما تختلف عليه اطوار الحياة

وربما كان من الحق علينا ان نسجل الواقع فصاحبنا قد نشأ كما نشأ اترابه واختلف الى الكتاب واوجعت فيه عصا سيدنا احيانا واختلف الى المدارس المدنية وبلى فيها من حياة التلاميذ والطلاب حلوها ومرها فاخفق حينا ونجح احيانا حتى اتم الدرس العالى كما اتمه كثير من اترابه . ثم عبر البحر الى اوربا فدرس فى بعض اقطارها اعواما ، ثم عاد الى قريته فائزا مظفرا وسعيدا موفورا وكل هذا من غير شك لايدل على طفولة ولا

يدل على أن نمو قواه العقلية قد كان محدودا . ولكن الغريب انه الى جانب هذا النمو المطرد قد احتفظ بشيء من خصال الاطفال لم يفارقه فى لحظة من لحظات حياته ، ولم يستطع اترابه الذين رافقوه فى المدارس المصرية وفى الجامعات الاوربية وفى الحياة العملية بعد ذلك ان يجهلوه او يتجاهلوه ، فقد كان دائما سريع التأثر جدا بما يسر وسريع التأثر جدا بما يسوء . وكان دائما يتنقل من الرضى الى السخط ومن السخط الى الرضى فى غير تمهل ولا اناة ولا شيء يشبه انروية او التفكير ، وانما كان ايسر الاشياء يدفعه الى الرضى فاذا هو فرح مرح واذا ضحكه يملأ الجو من حوله ، واذا حركاته العنيفة تضحك منه اصحابه وتلفت اليه غيرهم من الناس . وكان ايسر الاشياء يسخطه فاذا هو مغضب قد خرج عن طوره ، واذا عيناه تقدحان شررا واذا فمه ينفجر عن اشنع اللفظ وابشعه ، واذا جسمه يدفع الى حركات مضطربة تدعو الى الاشفاق عليه حينا والى الاشفاق منه حينا والى الضحك منه فى كثير الاحيان

وكان حكمه على الاشياء قاصرا او واهيا منحلا ، لا يعتمد على تفكير صحيح ولا على منطق دقيق ولا على شعور صادق بحقائق الاشياء ، وانما كان له وما زال له منطق خاص لا يكاد الناس يفهمونه عنه ولا يكاد الناس يقبلونه منه ، وانما يسمعونه اذا تكلم فيدهشون ويأخذهم شيء من العجب ، فاذا ردوا عليه منكرين اخرجه انكارهم عن طوره ودفعه الى الغضب التافر والسخط العنيف . فهم بين اثنتين اما ان يجاروه فيرضى وتغضب حقولهم ، واما ان يخاصموه فيغضب وترضى عقولهم . وقد هموا بالثانية فوجدوا منه شططا وارهقوه من امرهم عسرا وانتهك طفولته الجامحة الى ان تنتصر على عقولهم الراجحة

واكبر الظن انه قد تعود هذه المجاراة والمداراة منذ طفولته

الاولى فاستجاب ابواه الى كل ماكان يريد وحققا له كل ماكان يبتغى ، فنشأ واثقا بأن العالم قد خلق له يدعو فيجاب ، ويأمر فيطاع وبان كلمة لا لم تخلق لتسمعها اذناه وانما خلقت لينطق بها لسانه واكبر الظن ايضا ان هذا الحظ قد رافقه فى دراساته الاولى . وآية ذلك أن سيدنا لم يكد يغضب عليه ويؤذيه بعصاه مرة حتى حوله ابواه من الكتاب الى المدارس النظامية التى لايضرب فيها التلاميذ . وليس من شك فى ان حب ابيه له ورعايته لهذا المزاج المدلل الرقيق وحرصه على الا يتعرض لما يكره أو ان يرد عما يريد ، كل ذلك قد رافقه من قريب أو بعيد فلم تصدمه التجارب القاسية ولم تعلمه المصاعب ان ظروف الحياة يجب ان تتسلط على الناس اكثر مما يتسلط الناس عليها وان تؤثر فى الناس اكثر مما يؤثر الناس فيها . فادرك الشباب على هذه الحال مؤمنا بنفسه كما يؤمن الطفل بنفسه مغامرا كما يغامر الطفل ، لايفكر ولا يقدر ولا يرجو نشىء وقاوا وانما يريد فيقدم على مايريد . والغريب انه كان يبلغ كل مايريد . كان يبلغ كل مايريد لانه نشأ فى اسرة موفورة لها حظ من ثراء ونصيب من الاتصال بالاغنياء واصحاب الجاه ، فكان ثراء الاسرة وجيها له وعطفها عليه كل ذلك يذلل له المصاعب الخاصة ، وكان اتصال الاسرة باصحاب الجاه والغنى يذلل له المصاعب الاجتماعية التى كان يمكن ان تعترض طريقه فى الحياة وليس ادل على ذلك من انه راى الناس يكتبون فحاول ان يكتب ثم اظهر اسرته على ماكتب فاثنت عليه عن علم او جهل . ثم اظهر من تتصل بهم اسرته على ماكتب فاثنوا عليه عن علم او جهل . ثم راى الناس ينشرون فهم ان ينشر كغيره من الناس ولكن الصحف امتنعت عليه فوجد من ذوى الغنى والجاه من يتوسط له عند هذه الصحيفة او تلك واذا هو يرى اسمه

مطبوعا فى مجلة شهرية اواسبوعية ثم فى صحيفة سيارة متواضعة ثم فى صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، واذا هو كاتب كغيره من الكتاب يقرأ نفسه ولا يقراه الناس بعد ذلك فاما الذين يرونه ويعرفونه فيرضون ويثنون ويشجعون ولما الذين لايرونه ولا يعرفونه فقد يرضون وقد يسخطون وقد يعرفون وقد ينكرون ولكن صاحبنا لايعلم من ذلك شيئا ولا يعنيه ان يعلم من ذلك شيئا

والمهم انه لم يكد يتم الدرس حتى كان فى راى نفسه وراى ذوى معرفته كاتبا ممتازا . ولم يكد يعود من اوربا حتى هجم على التنيف كما هجم من قبل على التحرير ، واذا له كتب تذاع وتباع واذا ايسر الثناء على فصل يحرره او كتاب ينشره يثير فى نفسه من الرضى مايخرجه عن طوره ، واذا ايسر النقد لفصل يحرره او كتاب ينشره يثير فى نفسه من السخط مايخرجه عن طوره . واذا ثقته بنفسه على نحو مايثق الاطفال بانفسهم تفرضه على قراء الصحف والكتب والمجلات . ثم لانكاد الايام تتقدم حتى تضيف الحياة الى هذه الثقة ثقة اخرى ، واذا الامر يستحيل فى نفسه الى الغرور الذى لاحد له فى طول او عرض او عمق ان صح ان تكون للغرور ابعاد ، فقد تصل صاحبنا بوجوه الناس وسراتهم . واختلف الى انديتهم ومجالسهم وفرض نفسه عليهم بحكم المودة والقرابة والصلات المختلفة ، فاصبح واحدا منهم يشارك فى ما يشاركون فيه من شئون الحياة العامة والخاصة ويسرف على نفسه وعلى الناس فى هذه المشاركة ، والايام تبسم له فى اكثر الاحيان ، ولا تعبس له الا قليلا وهى لاتعبس له مع ذلك الا بمقدار

وفى احداث التطور السياسى والاضطراب الخلقى والانتقال الاجتماعى وما كان من تغير القيم واختلاف المقاييس مايتم القصة

ان كانت فى حاجة الى اتمام ويكمل الصورة ان كانت فى حاجة الى اكمال . ولكن الشيء المحقق هو ان الحياة المستقرة الثابتة التى تجرى الامور فيها على اذلالها تعلم الناس ان ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، ومضاء العزيمة، والصبر على المكاره ، والاحتمال للخطوب واخذ النفس بما يشق عليها ، وتجنبها الطرق الممهدة والامور الميسرة هى الخصال التى تبلغ بالناس مايسمون اليه من نجح وفوز ولكن الحياة المنتقلة المتطورة التى لاتهدأ الا لتثور ، ولا تسكن الا لتضطرب تعلم الناس ان الطفولة المتصلة قد ترفع اصحابها الى مكان الافذاذ

قالت السيدة وكانت اديبة اريبة : لقد اخطأ علماء البيان حين لم يرضوا عن هذا البيت الصادق الجميل من قول الشاعر القديم :

والعيش خير فى ظلا ل النوك ممن عاش كدا

الظلال الحائمة

لم يشعر بطرق الباب حين طرق ولا بفتحه حين فتح . ولم يحس مكان الخادم حين اقبلت تحمل الشاى فوضعته على المائدة عن يمينه ، والقت اليه نظرة سريعة فيها شيء من عجب وكادت ترفع كتفيها ساخرة، لولا املكت نفسها واستحضرت مايجب عليها من توقير سيدها ، فانصرفت متباطئة متثاقلة ، حتى اذا بلغت الباب فتحته فى شيء قليل من العنف واغلقته من ورائها فى شيء قليل من العنف ايضا تريد ان تنبه هذا الذى لايتنبه لشيء لانه مغرق فى قراءته . على انها لم تكد تغلق الباب من ورائها حتى احست شيئا من راحة الضمير فقد ادت الواجب كاملا ، حملت الى سيدها الشاى فى اباناه ، وطرقت الباب وخيل اليها انها سمعت الاذن لها بالدخول ، فدخلت وخرجت واتت من الحركات مايوقظ النائم فكيف بتنبيه الغافل او الذاهل او المغرق فى القراءة ؟ لقد ادت الواجب كاملا فلا عليها ان يتنبه سيدها او لايتنبه ، ولا عليها ان يشرب الشاى وهو ساخن كمايجب او ان يشربه وقد ادركه الفتور او البرد او الا يشربه اصلا . والواقع ان سيدها لم يتنبه لمقدمها ولا لانصرافها ولا للشاى الذى كان يدعوه عن يمينه ، ولكنه لم يكن يسمع دعاء ولا يجد الظما كما تعود ان يجده كل يوم فى هذا الموعد الذى كان يقدم اليه فيه الشاى

كان مغرقا فى القراءة ثم انتهى من الكتاب الذى كان يقرأ فيه الى فصل لم يتجاوزه ، وانما عاد اليه فقرأه مرة ومرة ، ثم كف عن القراءة ولكنه وصل بصره فى هذا الفصل الذى اعاد قراءته وظل مطرقا ممعنا فى الاطراق والتفكير ، ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر امامه لا يريد ان يرى شيئا وانما هو واجم باسم ينظر ولا يرى ويفكر ولا يحقق شيئا ، ثم تتسع ابتسامته قليلا ثم ينفرج فمه عن ضحك يريد ان يعلو ، ويملأ الغرفة لولا انه يمسكه ويوشك ان يرده الى جوفه ردا لانه قد ثاب الى نفسه فجأة واشفق ان يسمع ضحكه من وراء الباب فتظن به الظنون ، هنالك التفت فرأى ابريق الشاى كئيبا مستخذيا لكثرة مادعا الى نفسه والح فى الدعاء فلم يستجب له احد لان دعاءه لم يبلغ احدا . فاقبل صاحبنا على الابريق يمسه بيده مسا خفيفا ثم يمسحه بيده مسحا متصلا كأنما يترضاه ويعزيه . وقد احس برد هذا الابريق وعرف ان الشاى الذى يحتويه لم يعد ملائما لذوقه والفه ، رغم أن يدق الجرس ويدعو الخادم لتأتيه بشاى جديد ولكنه استحيا واشفق ان تسخر منه الخادم . اذا رات شايها لم يمس وان تعيد القصة على امرأته وبنيه فلا يفرغ منهم ولا من عبثهم اذا كان العشاء . فلم يرد ان يشرب الشاى كما هو ، وقد ملأ قدحه وجعل يدير فيه الملعقة يريد ان يذيب هذا السكر الذى يستعصى ولا يريد ان يذوب فى هذا السائل البارد . ولأن صاحبنا نسى الشاى مرة اخرى وجعلت يده تدير هذه الملعقة فى هذا القدح ادارة آلية غير شاعرة بنفسها لانه عاد الى التفكير فى هذا الفصل الذى كان يردد قراءته آنفا . ثم عاد الى التفكير فى هذا الفصل ثم لم يطل الوقوف عنده هذه المرة ، وانما ذهب به الخيال مذاهب مختلفة لم تلبث أن ردته الى الابتسام ثم الى الضحك المكظوم

وكان هذا الفصل من كتاب الفصول والغايات لابى العلاء ويجب ان اروى لك بعضه لتعذر صاحبنا فى اطالة الوقوف عنده

والتفكير فيه ثم فى اتخاذه معراجا يرقى فيه الى سماء بعيدة جدا من سماوات الخيال: «يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدمه ، ويسمع الاصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمعه ، ويجد الطعام باذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشى الى الغرض على هامته ..»

فقد وقفه هذا الكلام الغريب ، اضحكته الصور الظاهرة منه اول الامر ، ثم جعل يستعرض طائفة من اصدقائه وذوى معرفته فيتخيل بعضهم ماشيا على راسه قد اتخذ الطربوش او العمامة او القلنسوة غطاء لرجليه ، ويتخيل بعضهم باكيا باحدى اصابعه او آكلا باحدى اذنيه . فتدفعه هذه الصور مطبقة على مايعرف من اصحابه الى الاغراق فى الضحك ثم تثوب اليه نفسه شيئا فشيئا ، ويقدم عقله على الجد قليلا قليلا . واذا هو ينظر الى الامر نظرة فلسفية حازمة فيرى ان صاحب هذه الخواطر لم يخطىء . فقد خلق هذا العالم على هذا النحو الذى نعرفه وكان من الجائز ان يخلق على نحو آخر ، بل من الجائز ان يحوله خالقه من هذا النحو الذى خلقه عليه الى نحو آخر يمشى فيه الناس على رءوسهم وينظرون باقدامهم ويذوقون باذانهم . . الى آخر مازعم ابو العلاء .

ومادامت قدرة الله شاملة فلن يعجزها شىء . ثم يتلو فى نفسه الآية الكريمة : « واذ قال ابراهيم ربى ارنى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم » قدرة الله اذن شاملة لايعجزها شىء مهما يكن ، وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى نفسه ملحا عليها الحاحا شديدا ، وجعل خياله يتصور الوانا من الاشياء لم يرها الناس ولم يتعودوا ان يروها او يتحدثوا عنها ويقول لنفسه ان الله قادر على ان يخلق هذه الاشياء كما اتخيلها واشياء اخرى لااتخيلها انا . وانما يتخيلها غيرى من الناس او لاتخطر للناس

على بال . ثم تعرض لخياله صور يقف عندها وقوفا طويلا . فالله قادر على ان يصور مايمتاز الناس به من الفضائل فى شكل فتيات حسان يوسعن اصحابها ثناء وتشجيعا . والله قادر على ان يصور مايتصف به الناس من الرذائل فى شكل فتيات قباح يشبعن من يتصف بهن ذما ولوما وتقريعا .

ثم يأخذ فى استقصاء مايعرف من اخلاق نفسه فيرى وفاءه للاصدقاء وبره بهم وايثاره لهم بالمعروف وقد تصور امامه فتاة حسناء تهدى اليه ابتسامات حلوة من بعد ، ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم تلحظه لحظا فيه كثير من الحب والعطف والحنان . ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم ترسل اليه صوتا عذبا كأنه صوت الملائكة لو انه سمع للملائكة غناء أو حديثا . وهذا الصوت يحمل اليه دعابة حلوة وتحية كريمة . وهو يجد اللذة كل اللذة فيما يرى والمتعة كل المتعة فيما يسمع ولكن هذا الوجه الرائع الجميل الذى يدنو منه شيئا فشيئا لايلبث ان تغشاه سحابة رقيقة من الكآبة والحزن ، ثم تزداد هذه السحابة كثافة وثقلا وبشاعة كل مادنا منه ذلك الوجه الذى كان يراه رائعا جميلا . وقد خطر له فى اثناء ذلك انه لم يكن وفيا كل الوفاء ولا برا كل البر وانه فى ذات يوم قد خان العهد وجحد المودة ، وانكر الجميل وعق الصديق ، وانه قد اقدم طائعا او كارها على بعض الغدر الذى يحاول ان ينساه فلا يستطيع ولايكاد يفرغ من هذا التفكير حتى يحس شخصا منكرا بشعا قد وقف عن يمينه وجعلت اصابعه الغلاظ السمجة تعبث فى شعره ذاهبة جائية وجعل صوته خافتا أشد الخفوت ولكنه منكر اشنع النكر يقول له :

يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدميه ويمشى على رأسه ، ويقدر ربنا ان يحيى الموتى ، ويقدر ربنا ان يصور مافى نفوس الناس من الفضائل فتيات حسانا ويقدر ربنا أن يرد هؤلاء الفتيات الحسان قبيحات بشعات منكرات اللفظ واللحظ والصورة . ويقدر

ربنا ان يخرج هؤلاء الفتيات من القبح الى الحسن ومن البشاعة الى الجمال فالنفس الانسانية واحدة تحسن مرة وتسىء مرات ، والله قادر على أن يصور لها عملها فتاة يسبغ عليها الجمال والحسن مرة ويصب عليها القبح والبشاعة مرة اخرى . انظر . ويفتح عينيه فيرى فتاته تلك قد عادت الى جمالها وروعتها ، وقد اخذت ابتساماتها تمتلىء سحرا ولحظاتها تمتلىء فتونا وصوتها يمتلىء موسيقى تخلب القلوب وتعبث بالالباب وهى تتلو « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » وقد تنبه صاحبنا مذعورا اشد الذعر وظن ان قد اخذته غفوة فنام ، وعبثت به خواطر ابى العلاء فصور له فى غفوته هذا الحلم الغريب وقد اخذ يسترد نفسه النافرة ويدعو خواطره الشاردة يستعين على ذلك بهذا القدح من الشاى عن يمينه فهو يرفعه الى فمه فيفرغه فى لحظة ثم يرده الى مكانه فى شىء من عنف مقصود يريد ان يحدث صوتا يعيد اليه صوابه كله ويطرد من هذه الغرفة ما رددت فيها الاحلام من تلك الاصوات ، ولكنه ينظر فاذا اشخاص قائمة فى اقصى الغرفة منها الحسن الرائع ومنها القبيح البشع وكلها تنطق بصوت يوشك ان يكون صوتا واحدا ، يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدميه ويمشى على راسه . ويقدر ربنا ان يحيى الموتى ويميت الاحياء ويقدر ربنا ان يصور الفضائل والرذائل فتيات حسانا او قباحا ، ويقدر ربنا ان يملأ الارض بهؤلاء الفتيات تصور كل واحدة منهن ما يحدث الناس من اعمال فيها الخير والشر وفيها العرف والنكر . ويقدر ربنا ان يخفى هذه الظلال عن اعين الناس ماشغلتهم لحيرة ، وان يظهر هذه الظلال لاعين الناس اذا خلوا الى انفسهم وحاسبوها حسابا عسيرا او يسيرا

وقد امتلأ قلب صاحبنا رعبا . وهم ان ينهض بنفسه من هذه الغرفه المشؤومة الموبوءة وليجد عند اهله وبنيه انس من عنده

الوحشة ، ولكنه لا يجد قوة على النهوض كأنما اتصل بكرسيه اتصالا وكان كرسيه قد سمر في الارض واذا صيحة هائلة تملأ الغرفة ويفتح لها الباب وتدخل منه امراته مروعة تسأله : مأخطبك ؟ فيجيب في صوت غريب يمتزج فيه الخوف بالهدوء والضحك بالخجل : ما ادري لعلي غفوت فاخذني ما يشبه الكابوس ولكن صوتا خافتا جدا يسمعه هو ولا تسمعه امراته وهذا الصوت يهمس في اذنه ، كلا لم تغف ولم تروعك الاحلام والكابوس وانما رايت الظلال الهائمة ولن تامن منذ اليوم ان تراها

قلت لمحدثي وكان طبيبا بالاعصاب : اتريد ان تقول ان من الخير ان يحسن الناس اختيار ما يقراون من الكتب ، فان القراءة التي يمضي فيها اصحابها على غير اختيار سابق لما يلائم اعصابهم وامزجتهم قد تنهى بهم الى شر عظيم . قال محدثي هيهات وكيف السبيل الى تنظيم القراءة للرجال العاقلين وكيف السبيل الى ان يعرف الناس ما يلائمهم ومالا يلائمهم مما يقراون ؟ هيهات لم ارد الى هذا ولا يمكن ان اريد انما احببت ان ابين لك ان قلب الانسان غريب يقسو احيانا فاذا هو كالحجارة او اشد قسوة ويلين احيانا فاذا هو كهذه الارض الرخوة التي امتلات ماء لا تكاد تمس حتى تنفجر منها العيون والينابيع وقلب صاحبنا هذا قد قسا فكان كالحجارة او اشد قسوة ، فاتى ما اتى من الشرور فكان كهذه الارض التي امتلأت ماء ، مسها ابو العلاء بخاطره هذا الغريب فتفجر منها هذا الينبوع الذي نستطيع ان نسميه ينبوع الندم

واطرق محدثي الطبيب ساعة ثم رفع راسه الي ضاحكا وهو يقول : نعم ان قلب الانسان لغريب اتذكر ما قال فيه جوته انه كبير جدا لا يملاه شيء وهش جدا يحطمه ايسر شيء

غليظ

كان محمد بن عبدالملك الزيات قاسى القلب غليظ الكبد جافى الطبع بليد المزاج . وكان على هذا كله اديبا مرهف الحس نافذ البصيرة رقيق الشعور ، صافى الذوق مترف العقل ممتازا فيما يكتب من نثر وفيما يقرض من شعر . وكانت السياسة ، والسياسة وحدها ، هى التى اتاحت لهذين الشخصين المتناقضين ان يعيشا فى جسم واحد وان يتسميا باسم واحد ، وان يصدر عنهما مع ذلك من الاعمال والاقوال ماليس الى التوفيق بينه سبيل

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات اقسى الناس فى القول والعمل ماتولى امور الحكم ، وكان ارق الناس قولا وعملا مافرغ لحياته الخاصة . وقد ذهبت حياته الخاصة مع مايذهب من حياة الناس ، وبقيت من حياته العامة آثار تصور نفسه البشعة وقلبه القاسى وطبعه الجافى وعنفه الذى لم يكد تاريخ المسلمين يعرف له نظيرا

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول فيما كان يقول : ان

الرحمة خور فى الطبيعة ، وكان محمد بن عبدالملك الزيات يقترف فيما كان يقترف من الآثام . اذاق الناس الوانا من العذاب لم يعرفها قبله عرب ولا عجم . والله عزوجل يعجل الانتقام حينا ويملى للقساة الجفاة الظالمين احيانا ، وقد عجل الانتقام من محمد بن عبد الملك الزيات فذاق العذاب الذى اذاقه الناس ايام حكمه ، وكان معذبه يقول له « ذق انك انت العزيز الكريم »

ولست ادرى لم ذكرت محمد بن عبد الملك الزيات وقصته هذه البشعة ، وسيرته هذه المنكرة وحكمه هذا البغيض ، وقد تغيرت حياة الناس فرقت طباعهم بعد جفوة ، ولانت قلوبهم بعد قسوة ، ولم يبق بينهم فى مصر على الاقل من يقول ان الرحمة خور فى الطبيعة ، ومن يعذب الناس فى تنور قد فرشت ارضه بالمسامير المدببة ، وقد امتدت هذه المسامير المدببة فى سقفه وجنباته فما يقيم فيه المعذب البائس الا على هذه المسامير تأخذ لحمه من كل ناحية ان اقام ساكنا او تحرك فى تنوره هذا المنكر البشع

ليس فى مصر شىء من هذا لاننا قد تحضرنا فرقت طباعنا وصفت اذواقنا ولانت قلوبنا وتهذبت نفوسنا . واذن فما الذى يذكرنى بمحمد بن عبدالملك الزيات فى القرن الرابع عشر للهجرة ، وفى مدينة القاهرة التى هى عاصمة مصر التى قال عنها اسماعيل العظيم رحمه الله «انها جزء من اوربا »

ذكرنى بمحمد بن عبد الملك الزيات فى قسوته الغليظة الجافية ما الاحظه من ان الترف لم يغير من غرائزنا شيئا ، وانما علمها القسوة المترفة وعلمها الافتنان فى العذاب وعلمها الترف فى الوان الانتقام ، فنحن لانعذب الاجسام وانما نعذب النفوس ، ونحن لانلقى الناس فى تنور اشرعت فيه المسامير من جميع اقطاره وانما نلقى الناس فى الوان من العذاب ليست اقل بشاعة ولا نكرا من هذا

التنور الذى ابتكره ذلك الوزير العباسى فى القرن الثالث للهجرة وفى مدينة السلام

وليس فى هذا شىء من الغرابة فان تقدم الحضارة الانسانية لم يرق العقل وحده ، ولا الذوق وحده ، وانما رقى الغرائز ايضا وعلمها فنونا من القسوة ماكانت لتخطر لمحمد بن عبد الملك الزيات واضرابه على بال . وللفرنسيين تعبير يصور هذا الترف فى القسوة وهذا الافتنان فى الانتقام ، فهم يقولون فيمن يصب على الناس عذابا هادئا ولكنه متصل منته الى ابشع الغايات ، انه ينضج من يعذبه على نار هادئة . ونحن والحمد لله بارعون كل البراعة فى الانضاج على النار الهادئة ، نجد فى هذا لذة آثمة خبيثة توشك ان تكون مسخا لما كان الانسان يظن انه يمتاز به من ذكاء القلب ونفاذ البصيرة وصفاء الذوق ودقة الطبع . واى شىء ابغض وابشع واشد فى النفوس نكرا من ان تصب على خصمك هذا العذاب الهين اللين الرقيق ، الذى لايكد يرى ولاتكاد اناره تحس ، ولكنه يتصل ويمضى مع الدقائق والساعات ومع الايام والليالى ومع الاسابيع والاشهر والاعوام ، حتى يبلغ ببطئه هذا الفظيع اضعاف ما كان يبلغه محمد بن عبدالملك الزيات بعذابه المنكر السريع

وابشع من هذا كله واشد من هذا كله نكرا ان يصطبغ هذا العذاب الهادىء المتصل البطىء بصبغة من العدل او مما اتفقنا على ان نسميه عدلا ، فلا يجوز انكاره ولا يباح نقده ولا يصح ان يلام فيه الذين يقترفونه ، لانهم ينفذون القانون وينفذونه فى دقة حازمة صارمة ، وهم يحمدون لذلك ولا يلامون فيه ، وكيف يلام الناس حين ينفذون القانون ؟ وكيف يعاب الناس حين ينشرون هذا العدل الذى يصنعونه صناعة ويتكلفونه تكلفا ويناقضون به طبائع الاشياء ويناقضون به هذه القوانين العليا التى لم يضعها

برلمان ولم يشرعها ملك ولا حاكم ، وانما ركبت فى نفوس الناس تركيبا وجعلت جزءا من فطرتهم

وما اشد حاجة الناس الى ان يفرغوا لانفسهم بين حين وحين ويتدبروا اعمالهم واقوالهم بين وقت ووقت، ويضعوا انفسهم حين يضعون ضحاياهم ، ويسألون انفسهم ايصبرون لما يصبون على الناس من هذا العذاب الهادىء البطىء المتصل لو ان غيرهم صبه عليهم فى هدوء وبطء واتصال ، هذا الموظف فى وزارة المعارف الذى اراد ان يلحق طفلا من اطفاله بروضة من رياض الوزارة لينشأ مع اخويه فلم تكتف الوزارة بان ردت طفله الجديد ، ولكنها انخفت به فى البيت اخويه اللذين اقاما فى الروضة عامين او اكثر من عامين ، ثم حولتهما بعد ذلك الى روضة خيالية قد انشئت فى عقول الموظفين فى وزارة المعارف ولم تر الشمس الا بعد وقت غير قصير ، وقد ذهب هذا الموظف باطفاله الى روضتهم الجديدة البعيدة فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بهم فلم يجد شيئا . ثم فتش واستقصى . وسأل القاصى والدانى . وسأل مكتب البريد فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بعد ذلك فوجد دارا مهدمة ليس فيها مرفق ولا اداة من ادوات التعليم والتربية واللعب ، ليس فيها طعام يؤكل ولا ماء يشرب ، فعاد باطفاله الى داره كئيبا محزونا كاسف البال ، وكان قد شكا للوزير فلم يسمع الوزير له او لم يعلم الوزير بانه قد شكا اليه

وقد جعل كل ما اصبح راى اطفاله يبكون ، لان سيارة الوزارة التى كانت تحملهم الى الروضة فى الاعوام الماضية تمر بهم مصبحة ممسية فلا تغدو بهم على الروضة ولا تروح بهم منها ، وانما تمر بهم ساخرة منهم مزدرية لهم تحمل ترابهم فرحين مرحين يبتسمون للصبح المشرق الذى يسوقهم الى المدرسة ، ويبتسمون للنهار المبصر الذى يردهم الى دورهم ، وهؤلاء الاطفال البائسون يرون سيارتهم

ويرون أترابهم دون أن يستطيعوا ركوب السيارة او مشاركة الاتراب في ابتسامات الغدو او ابتسامات الرواح

راى هذا الموظف اطفاله على هذه الحال ، وذاق هذا الموظف مع اطفاله مرارة الحرمان وقسوة هذا العذاب ، وقد اراد سوء حظه وسوء حظهم ان يكون هؤلاء الاطفال اليتامى قد فقدوا امهم كما كان هو مترملا قد فقد زوجه ، وكان هذا الموظف يجد في تربية اطفاله وتنشئتهم من العزاء عن فقد زوجه ، وكان معتقدا انه يرضى نفس امراته كلما نجح في العناية باطفاله وفي تربيتهم لانه يؤدي لهم ما كانت خليقة ان تؤديه بواتيح لها البقاء . فلما وذى الاطفال في تعليمهم وفي لعبهم ، ولما اوذى لاب في تربية أطفاله وتنشئتهم ولما راى الاب دموع أطفاله مع الصبح ودموع أطفاله مع المساء وضجر أطفاله أثناء النهار لم يستطع على ذلك صبرا ، ولم يملك نفسه ، فشكا في الصحف لعل الوزير يقرا شكاته فيمسه بشيء من الانصاف ويمس أطفاله بشيء من العطف ويرد اليهم واليه حقهم من العدل الذي كلف أن يشيعه بين الناس

شكا ولكن الوزير لم ينصفه ولم يعطف على أطفاله ولم يرد اليهم ولا اليه قليلا من العدل ولا كثير ، لم يفكر في الاب الارمل ولا في الام الميتة ولا في الاطفال الصغار اليتامى ، وانما فكر في الموظف الذي نقد الوزارة في الصحف ورأى أن هذا النقد اثم في حق الحكومة وان القانون المالي يعاقب عليه

يا للعقول الواسعة . يا للقلوب الرحيمة . يا للطباع المهذبة . يا للاذواق المصفاة . أما الابوة البائسة وأما الطفولة التعسة فلا يحفل بها الوزراء ولا يلتفتون اليها ولا يقفون عندها ، لانهم ان فعلوا ذلك كانوا رحماء . والرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول محمد ابن عبد الملك الزيات

واما أن ينقد موظف وزارة المعارف الى واجبها ويدلها على خطئها ويدعوها الى اصلاح هذا الخطأ فهذا هو الاثم كل الاثم .

والاجرام كل الاجرام ، وهوالتقصير فى ذات القانون وهو الخروج على النظام ، والسكوت على هذا كله ضعف اى ضعف ، والعقاب على هذا كله عدل أى عدل وحزم أى حزم . الا بعدا للعدالة والحزم ان كانت غايتهما اهدار أبوة الآباء وبنوة الابناء ، وتضييع ما للناس على الدولة من حق والغاء ما على الدولة للناس من واجبات

أساء الموظف اذن الى الدولة فى رأى الوزير فيجب أن يعاقب فاما اساءة الوزير الى الامة فى أشخاص هؤلاء الاطفال الصغار فيجب أن تذهب هدرا ، كذلك يريد العدل المصنوع . وقد حقق مع هذا الموظف فالقيت عليه أسئلة صريحة أجاب عليها اجابة صريحة وكان من الممكن أن يقرأ الوزير وان يقدر أبوة هذا الاب البائس ، وبنوة هؤلاء الابناء البائسين ، ولكن الوزير لم يقدر أبوة ولا بنوة ، وانما قدر أن الحكومة قد أسىء اليها فيجب أن تنتقم من المسىء ، فاصدر أمره بنقل هذا الموظف الى الصعيد الاعلى ، هناك حيث لا توجد رياض للاطفال ، وحيث لا يجد هؤلاء الاطفال الذين نشئوا فى القاهرة ما يلائم حياتهم الهانئة المتواضعة ، ولو أن لهؤلاء الاطفال أما ترعاهم لسافر أبوهم الى الصعيد الاعلى جادا كادا ملتمسا له ولهم أسباب الرزق ، ولكن الاطفال يتامى لا يعولهم الا أبوهم ولا يستطيع أن يعولهم فى الصعيد الاعلى ، فطلب الموظف الى الوزير أن يعفيه من هذا النقل ليرعى أطفاله ويقوم منهم مقام الاب والام جميعا

ولكن الوزير لم يفكر فى الابوة البائسة ولا فى الطفولة اليائسة ولا فى الامومة التى ذهبت بها الاقدار وانما فكر فى أن وزارة المعارف قد أسىء اليها فيجب أن تنتقم من المسىء

ولذلك أبى الوزير أن يقبل عذر هذا الاب البائس ، وحدد له موعدا يصل فيه الى الصعيد الاعلى . ونظر الموظف فاذا هو مخير بين أمرين احلاهما مر وايسرهما نكر ، فاما أن يرضى الوزير فيجحد حق أبنائه عليه ويجحد حق امرأته عليه أيضا ،

حق امرأته الميتة التى لا يمكن استرضاؤها ولا الاعتذار اليها ، واما أن ينهض بحق أبنائه وحق زوجه وحق أبوته فيغضب الوزير وفى غضب الوزير ضياع المنصب وانقطاع المرتب وتعرض الاطفال الصغار للجوع والحرمان

وقد اختار الموظف فارضى حق الابوة والبنوة والامومة واختار الوزير أيضا بين الرحمة التى أودعها الله فى النفوس والعدل الذى صنعه الناس صناعة، فترك الرحمة التى نشرها الله وآثر العدل الذى صنعه الناس ، وأحال الموظف الى مجلس التأديب ووقفه عن العمل وقطع مرتبه

وقد قلت لك اننا بلغنا من الترف فى الانتقام والافتنان فى حب العذاب الهادىء المتصل البطىء مالم يبلغه محمد بن عبد الملك الزيات . ففى اليوم الثلاثين من شهر اكتوبر ارسلت الوزارة الى البنك كتابا تأمره فيه الا يصرف لهذا الموظف مرتبه عن شهر اكتوبر وعلم الموظف ذلك من البنك نفسه لا من الوزارة، وذهب الى الوزارة فى اليوم الاخير من شهر اكتوبر يسأل عن هذا القرار فقيل له انه صدر ولكنه لم يطبع بعد . ومعنى ذلك ان البنك قد عرف القرار قبل ان يعرفه الموظف . ومعنى ذلك ان هذا الموظف ذهب فى آخر الشهر ليتقاضى مرتبه فلم يجد شيئا ولم يكن قد عرف من امر القرار شيئا . ومعنى ذلك ان هذا الموظف عاد الى بيته فى ذلك اليوم صفر اليد مما تعود ان يوسع به عليهم ، وأن يرزقهم منه رزقهم حين يصبحون وحين يمسون . ومعنى ذلك ان هذا الموظف لم يعاقب فى نفسه وحدها ، وانما عوقب فى اطفاله الصغار . ومعنى ذلك ان هذا الموظف لم يعاقب وحده ، وانما عوقب معه اطفال ابرياء اكبرهم فى السادسة واصغرهم فى الثالثة . لان هذا الموظف نقد الوزارة فى الصحف . ومعنى ذلك ان الوزارة اكرم على نفسها من ابوة الآباء وبنوة الابناء، وحق اليتامى لا فى ان يتعلموا بل فى ان يعيشوا .

هذا هو العدل الذى صنعه الناس والذى تقوم عليه قوة الحكومات . فأما الرحمة التى خلقها الله ، فأما العدل الذى اراد الله ان ينشر فى الارض، فامر ان لايثبتان لما ينبغى لوزارة المعارف من كرامة فى نفوس الموظفين . والغريب ان وزير المعارف اب وان ما اجراه على هذا الموظف يمكن ان يجريه عليه طاغية من الطغاة فى يوم من الايام، والغريب ان لوزير المعارف اعوانا كلهم اب، وكلهم يعرف حق الأبوة وحق البنوة وماينبغى للاطفال الصغار اليتامى من رعاية وعناية وحماية من الآفات .

كل هذا غريب حقا لان التسلط يعمى البصائر والابصار عن حقوق الابوة والبنوة، ولان التسلط يملأ النفوس غرورا وفتونا وتكبرا وتجبرا ، ويرتفع بها عن الرحمة التى هى خور فى الطبيعة كما كان يقول محمد بن عبد الملك الزيات .

اى العذابين أشد نكرا ! عذاب التنور الذى اشرعت فيه المسامير المدببة والذى يألم فيه المعذب اياما ثم يموت ، ام هذا العذاب الرقيق الرفيق الرشيق الهادىء المتصل البطىء الذى لايرى ولا تحس آثاره ولكنه يفنى النفوس شيئا فشيئا ، ويعلم الاطفال ان الحرمان قد يؤذى، وان الظلم قد يملأ النفوس بأسا، وان الجوع قد يكون كريه المذاق

اى العذابين أشد نكرا ، هذا العذاب الذى كان يصبه محمد ابن عبد الملك الزيات على الاجسام حتى تهلك، ام هذا العذاب الذى يصب فى هذه الايام على النفوس فيعرضها لفقدان الكرامة وللشعور بالذلة وللاستخذاء امام المتسلطين الى هذا انتهت بنا الحضارة المترفة ويقال بعد ذلك ان اخص مايمتاز به العصر الحديث انه علم الناس ان لهم ضمائر تحب الخير وتكره الشر ، وتندم حين تصيب الناس بما تكره ان يصيبها الناس به

ربما كان هذا حقا ، ولكن هذه الضمائر التى استكشفها الانسان فى العصر الحديث تمتاز أيضا بالمرونة، فهى قادرة على ان تتشكل

بما يقدم اليها من الاشكال ،وهى قادرة على ان تستدير مع الشمس ، وهى قادرة على ان تستقبل الريح من حيث تهب ، وهى قادرة على ان تلغى ابوة الاباء وبنوة الابناء وامومة الامهات وان تكن فى غيابات القبور. وهى قادرة على ان تعرض الاطفال الصغار اليتامى للجهل والفقر والمرض والجوع ، لا لشىء الا لان وزارة المعارف قد نقدت فى الصحف وهى اكرم من ان تنقد فى الصحف وان كان الناقدون آباء لا يعرفون كيف يعلمون ابناءهم

معذرة ايها القارىء الكريم انى لاشعر ان فى هذا الحديث مرارة قد تؤذى نفسك وتؤلم قلبك ولكنك توافقنى فيما اظن على ان فى حياتنا اشياء ان رضيها ضمير الوزراء واعوان الوزراء فلا ينبغى ان ترضاها ضمائر الشعوب

الشجاع

لم تخطىء وصفه ياسيدتي ، فهو شجاع بادق معاني هذه الكلمة واكملها واشملها ، ولكن بشرط ان تفهمي من الشجاع معنى غير هذا المعنى المألوف الذي ابتذله الناس في ادبهم القديم والحديث . فليس في صاحبنا من شجاعة الناس شيء ولعله ان يكون ابعدهم عنها وأبراهم منها ، وادناهم الى الخوف الذي يخلع القلوب ، والهلع الذي يفسد المروءة ، والجزع الذي تطير له النفوس شعاعا. وآية ذلك انه حريص أشد الحرص على ان يرضى كل انسان مشفق اشد الاشفاق من ان يغضب اي انسان، لا يحرص على ان يرضى الجماعات ايضا . ولعل حرصه على ارضاء الجماعات ان يكون اشد من حرصه على ارضاء الافراد ، ولا سيما حين يكون لهذه الجماعات من القوة حظ قليل او كثير وحين يكون بينها وبين السلطان سبب طويل او قصير . والامر عنده في ارضاء الافراد والجماعات يدور على ما يرجو من منفعة وما يخشى من مضرة فهو حيثما رجا المنفعة عظيمة كانت او يسيرة ، حلو الشمائل سمح الاخلاق سهل المراس، لين العريكة، مهذب الطبع، منقف الذوق ، عذب الحديث ، وهو على نقائض هذه الخصال كلها اذا لم يرج

نفعا ولم يخش ضرا ، فيه ماشاء الله من شراسة الطبع وجفوة الخلق وغلظة الذوق وانحراف المزاج، وسوء العشرة ، وصعوبة المراس وخشونة الحديث

واظنك توافقيننى ياسيدتى على ان شيئا من هذه الخصال لايلائم اخلاق الرجل الشجاع . فالشجاع لايقيم امره على الرياء ولا يجرى حياته على المصانعة ، ولا يلين حين تجب الشدة ولا يشتد حين يحسن اللين

والشجاع بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لايسرف فى ايثار نفسه بالخير ولا يضحى فى سبيل هذا الايثار بما يجعل الرجل الكريم رجلا كريما. ومع ذلك فصاحبنا شجاع بشرط ان تفهمى الشجاع كما اراد ان يفهمه الشاعر القديم حين قال : ـ

واطرقت اطراق الشجاع ولو يرى مساغا لنابيه الشجاع لصمما

فالشجاع هنا اسم لاوصف ، وهو لايدل على الرجل الذى يصبر نفسه على المكروه ويجشمها الهول فى سبيل مايتم مروءته ويكمل رجولته ، ويرفع منزلته ويجعله ممتازا بين الممتازين الذين يستحقون الامتياز ، ولا يغضبونه غضبا وانما يدل على الحية التى تستخفى فى جحرها لاتكاد تظهر منه الا راسها الدقيق وتظل على حالها هذه مستخفية طرقة ، حتى اذا مكنتها الفرصة ووجدت مساغا لنابيها لم تضيعها وانما عضت فصممت كما يقول هذا الشاعر وبلغت من عضتها وتصميمها ماتريد

وهذه الحية او هذا الشجاع لايستخفى فى الجحر دائما ولكنه يستخفى فى رمال الصحراء ويستخفى بين الصخور الغلاظ ويندس فى الفراش الوثيرة ، وهو سارب بالليل وسارب بالنهار يحسبه من يراه هادئا كل الهدوء مطمئنا كل الاطمئنان ولا يكاد يقدر ان على احد منه باسا لولا ان الانسان قد عرف اخلاقه منذ اقدم العصور ، ولكن هدوء الهادىء لايغر الناس عنه واطمئنان المطمئن لاينسى الناس ما بلوا من اخلاقه وهذا هو الفرق الوحيد بين الشجاع الذى نتحدث عنه والشجاع الذى ذكره الشاعر

القديم. معروف الأذى منتظر الشر قد تواصى الناس ببغضه وخوفه واجتنابه منذ عرفوه . واما الشجاع الذى نتحدث عنه فانه رجل مثلنا يشاركنا فى كثير من صفات الناس ويضطرب معنا فى كثير مما نضطرب فيه من شئون الحياة ، وهو من اجل ذلك يخدعنا عن نفسه وامله ان يخدع نفسه عن نفسه ايضا ولست ادرى ايهما شر ، شجاع الحيات الذى لا يراه الناس الا فزعوا منه واتقوا شره او شجاع الناس الذى نراه فنطمئن اليه ونصل اسبابنا باسبابه ونقدم اليه المعروف وننتظر ان يقدم الينا المعروف او الا يصيبنا منه مكروه على اقل تقدير

وقد زعم بعض الناس للجاحظ ان من الحيات ما له راسان ، وزعم بعض الاعراب للجاحظ انه راى هذا الصنف من اصناف الشجعان ، فلما سأله الجاحظ باى الراسين يسعى وبأيهما يطعم قال انه يفطر باحد راسيه ويتغذى باحدهما الاخر ويسعى بهما جميعا .. قال الجاحظ وهذا من اكذب الكذب . ومن الجائز ان يكون الاعرابى قد كذب على الجاحظ فى وصفه لشجاع الحيات ولكن من المحقق ان لشجاعنا الانسى راسين وانه يفطر باحدهما ويتغدى باحدهما الآخر . او قولى ان شئت يا سيدتى ان له لونين من الوان الغذاء وقد خصص لكل لون منهما راسا من راسيه هذين فله غذاء مادى يأتلف من هذا المنال الذى يجمعه شيئا فشيئا ويحصله قليلا قليلا ، ويضم بعضه الى بعض فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، وله غذاء معنوى يمازجه شىء من المادة هو هذه الدرجات التى سعى لها منذ اتصلت اسبابه باسباب العمل فى الدواوين ، فهو يلتمسها فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، كما يلتمس غذاءه المادى ذاك . وما اكثر الذين يتاح لهم ان يعملوا فى دواوين الحكومة او غيرها من مكاتب الاعمال العامة ، ويعنون مع ذلك بجمع المال وتدبير الثروة والاستكثار مما يتيح لهم الغنى ويملأ أيديهم من حطام الدنيا ، ولكن المهم الذى يمتاز به صاحبنا ويشبه به الشجاع شبها قويا ، والشجاع ذا الراسين ، هو

طريقته فى جمع المال وتدبير الثروة ، وطريقته فى التماس المناصب وابتغاء الوسائل الى الرقى فى درجاتها المختلفة . فهو لا يسعى فى ذلك كما يسعى الناس ، وانما يتاتى له كما يتاتى الشجاع للفريسة التى يعمل فيها نابيه وينفث فيها سمه الناقع

وقد زعم بعض الصقالبة للجاحظ ايضا ان من الحيات ما يلتف على البقرة الحلوب التفافا حتى يبلغ ضرعها فيرتضعه فى شره وما يزال يشرب ما فيه من لبن حتى يمتلىء وينتفخ ويتراخى. واذا هو يترك البقرة ويستلقى سكران من كثرة ماشرب ولكنه قد اضطر فريسته الى الهلاك

وكذلك يفعل صاحبنا فى جمعه للمال حين يجمعه وفى انتماسه للمنصب حين يلتمسه ، يرى الفريسة امامه فينظر اليها ويصل بها نفسه وقلبه وعقله ، ثم يثب اليها حين تمكنه الفرصة ثم يلتف عليها ومايزال يمتصها امتصاصا ويرتضعها ارتضاعا حتى يأتى على آخر ماعندها . اورثته اسرته ثروة متواضعة ليست بذات غناء ولكنه لم يقنع بها . ومتى قنع انناس بما يتاح لهم من أعراض الدنيا ، لم يقنع بها وانما طمع فى تنميتها . وفى تنميتها على حساب جيرانه وخلانه وذوى مودته ، والذين كانت بينهم وبين اسرته صلات المحبة والالفة وحسن الجوار ، فاطرق اطراق الشجاع ، وجعل ينتهز الفرصة حين تسنح ويتربص الدائرة حين تدور ويرقب النائبة حين تنوب . فلا تزال عينه ناظرة الى ماحوله من ارض جيرانه ولا تزال نفسه متصلة بها حتى تعرض حاجة جار من جيرانه الى بعض المعونة الى مايحتاج اليه صاحب الارض من هذا القرض الذى يؤدى به الحق حين يلزم ، ويدفع به الخطب حين يلم . هنالك يرفع الشجاع راسه من اطراقه ، وهنالك يكون الاطماع ويكون الامتناع ، وهنالك يكون الدنو ويكون النأى ، وهنالك يكون القرب ويكون الهجر والحاجة ملحة على جاره ولعله ان يشارك

فى جعل هذه الحاجة ملحة مشتدة فى الالحاح ، وما يزال بجاره يبدى له المال ويخفيه عنه حتى اذا وجد مساغا لنابيه ادى المال واخذ مكانه رهنا مقبوضا

وكذلك انفق حياة طويلة يداعب جيرانه هذه المداعبة المرة ويلاعبهم هذه الملاعبة البغيضة ، حتى ضم ارضهم الى ارضه ومالهم الى ماله وحتى ردهم فقراء بعد غنى واشقياء بعد سعادة ومحتاجين الى الرفق والعطف بعد ان كانوا يبذلون الرفق والعطف ، واذا هو سيدهم ، وقد كان واحدا منهم . واذا هم يدينون له بالطاعة ويلجأون اليه عند الملمات ، ويعملون فى ارض كانت لهم فاصبحت له واصبحوا هم لها وله فى وقت واحد .

واذا هو يستكبر ويستعلى ويطغى ويبغى ويشق على من كانوا له اكفاء فاصبحوا له اجراء . وكذلك عمل احد هذين الراسين فى الازدراد والالتهام لكل ماكان حوله من المال والثراء ينتهز الفرصة كلما سنحت ويخلقها اذا لم تسنح ويبذل الحيلة كل الحيلة فى خلقها وابتكارها ان امتنعت عليه . وهو على هذا كله هادىء وادع مطمئن يشيع فى قلوب الذين يرونه امنا وانسا ودعة ورفقا ؛ حتى اذ عضهم بنابيه عرفوا كيف تكون مساورة الحيات . ولو كان لهم حظ من ثقافة او ادب لانشد كل واحد منهم قول النابغة :

فبت كانى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى انيابها السم ناقع

واما راسه الثانى فيعمل فى القاهرة ، يستقر فى مكتب من المكاتب وفى ديوان من الدواوين كما يستقر الشجاع فى جحره او يطرق كما يطرق الشجاع فى كثيب من رمال الصحراء ، يسعى هادئا كما يسعى النسيم ، وينساب رفيقا كما ينساب ماء الينبوع ، وهو على ذلك حذر ماكر يرقب الفرصة ويسعى

بالكيد ، ويفرق بين الصديق ويغرى بالزميل حتى اذا امكنت الفرصة ووجد مساغا لنابيه صمم واحسن التصميم ووثب الى فريسته فانطوى عليها كماينطوى شجاع الجاحظ على البقرة الحلوب ، ومايزال يمتص فريسته حتى يأتى على آخر ماعنده ، واذا هو قد ارتقى من منصب الى منصب ، ووثب من درجة الى درجة وقفز من مرتبة الى مرتبة ، واذا الذين كانوا له رفاقا وزملاء قد اصبحوا له مرؤوسين يجدون فى طاعته ويصدرون عن أمره ، وقد ملأ الجو من حوله مكرا وكيدا وخبثا ودهاء ونفث السم فى البيئة كلها كما ينفث الشجاع سمه فى الفريسة حين يظفر بها

واخص مايمتاز به الشجاع انه على مايظهر من لينه ورخاوته وتهالكه ومرونة جسمه شديد الايد لايعيا بشىء واقوى مافيه انيابه ومعدته . فانيابه لايعييها شىء ومعدته لايعجزها قضم . وهو من أجل ذلك لايتعب ولا يبلغه الجهد مهما يحاول من امر ومهما يتكلف من مشقة . وهو من اجل ذلك لايرضى مهما حقق من أمل ولا يقنع مهما يبلغ من ارب ، وهو لايمضغ دائما ولكنه يمضغ حينا ويزدرد احيانا ويهضم على كل حال . وامر صاحبنا كأمر الشجاع فى هذا كله ، فراسه العامل فى القرية لايطرق الا ليثب ، وراسه العامل فى القاهرة لايطمئن الا ليثور ، ومعدته مضطربة دائما بهذا الهضم المتصل الذى لا يذر شيئا اتى عليه الا جعله كالرميم .

وللشجاع صفير يؤذى وفحيح يخيف ، ولو قد سمعت صاحبنا ياسيدتى حين يعبث به الطمع ويحركه الاغراء وتدعوه الفريسة الى القضم والهضم ، لسمعت صياحا منكرا وجئيرا بشعا ليس اقل نكرا ولا بشاعة مما يبعثه الشجاع حين يتهيأ للوثوب من صفير وفحيح

وليس لشجاع الحيات منزل يختاره ويؤسسه ويؤثر المقام فيه وانما هو ساع دائما يأوى الى حيث يحب ان يأوى ويغير حيث يحب أن يغير، وهو من اجل ذلك شائع الاذى متصل الشر منتشر العدوان ، وصاحبنا يشارك الشجاع فى هذه الخصلة كما يشاركه فى غيرها من الخصال ، فهو لا يؤثر مالا بعينه ولا يؤثر عملا بعينه ولا يؤثر صديقا بعينه ولا يؤثر عدوا بعينه ، وانما المال كله صالح للجمع وتوفير الثراء ، والعمل كله صالح لنيل المناصب وارتقاء الدرجات والناس كلهم له صديق والناس كلهم له عدو ، وهو قادر على ان يندس فى كل مكان ويحصل فى كل مجلس ، وينساب فى كل ناد ويقول فى كل شىء ويكتب فى كل موضوع وينفث السم حيث يتاح له ان ينفث السم . اى حيث يتاح له ان يتنفس . فالهواء كله قد سخر له يودعه سمه فينقله حيث يسعى النسيم وحيث تجرى الريح عاصفة او رخاء .

ولشجاع الحيات المصرية شهرة ذائعة واحاديث شائعة وذكر قديم وصوت بعيد . وعهد مصر كما تعرفين بالحيات قديم ذكرت مع فرعون فى الكتب المنزلة وظهرت مع فرعون فى النقوش والاثار ، ولكن عهد مصر بالشجعان الانسية قريب فيما يظهر ، وهو على قربه خصب بعيد الاثر ، فقد كثرت شجعان الناس فى مصر منذ اضطربت السياسة وتلاحقت الخطوب ومكر بعض الناس ببعض وكاد بعض الناس لبعض ، وتوشك مصر ان تعرف شجعان الناس كما عرفت بشجعان الحيات

قالت السيدة متضاحكة وكانت اريبة . حسبك فقد روعتنى واخشى ان تكون قد روعت نفسك ، فاذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يعوذ بالله من ان يتخبطه الشيطان عند الموت ومن ان يموت فى سبيله مدبرا ومن ان يموت لديغا

لا تكلف نفسك مشقة ولاجهدا فلن يتاح لك حل هذا اللغز بالمشقة والجهد ولا بالروية المتصلة والتفكير الطويل . وليس مصدر ذلك ان هذا اللغز عسير الحل ، ولا ان الطريق الى حله ملتوية متشعبه يوشك سالكها ان يجور فيها عن قصد السبيل، بل مصدر ذلك ان هذا اللغز يسير جدا ايسر مما تقدر واقرب الى الحل مما تظن، وان الطريق الى فهمه قصيرة مستقيمة لاطول فيها ولا التواء . فانت ترى صاحبنا اعجوبة من اعاجيب الدهر وغريبة من غرائب الزمان. تجلس اليه فلا تكاد تسمع منه صوابا ولاتكاد تفهم عنه شيئا ،وتتحدث اليه فلايفهم عنك الا ايسر ما تقول ولا يكاد يرد عليك رجع الحديث حتى يأخذك شيء من العجب لانك لا تدرى اتتحدث الى عاقل ام تتحدث الى مجنون

وانت تنظر الى جسمه هذا الذى يمتد عن يمين وشمال، ومن وراء وامام ولايكاد يرتفع فى الجو الا قليلا ، ولا يكاد يجد من الناس وكراسيهم ما يسعه كما يسع غيره من الناس، فيخيل اليك ان هذا اللحم المتراكب والشحم المتراكم قد القى بين نفسه وبين

العالم حجباصفاقا واستاراكثافا.. فهى لاتكاد تحس من العالم شيئا والعالم لا يكاد يبلغها الابعد عناءشديد، وانت تنظر الى وجهه الضخم الجهم فترى على شفتيه الغليظتين ابتسامة تدل على البله والغفلة اكثر مما تصور الفطنة والذكاء ، وترى انفا ضئيلا قد كاديغرق فيما يكتنفه من لحم خديه ؛ وجعل النفس يتردد فيه محتبسا مختنقا يسمع له صوت ثقيل بغيض . وترى جبهة ضيقة بارزة قد انبسط فوقها راس مفرطح عريض قل فيه الشعر واخذ فيه الصلع ،وجعلت تبدو من خلاله رقع ضيقة جرداء حتى انكره وكره ان يكشف راسه الا قليلا

وترى عينين مغمضتين كان صاحبهما نائم مغرق فى النوم فاذا اراد ان ينظر الى شيء امامه، أو الى انسان بين يديه ، رفع جفنين متكسرين ورفعهما فى شيء من الجهد فبدت من دونهما عينان صغيرتان منطفئتان لا تصوران يقظة ولا نشاطا ولا ذكاء ، وانما تصوران نوما وخمولا وغباء شديدا ، فاذا استمعت له وهو يتحدث اضطررت ان تجهد اذنيك لينقل عنه الصوت اليك لانه يتكلم فى صوت ليس بالنحيل ولا بالضئيل ولكنه مع ذلك ليس بالقوى ولا بالمرتفع ؛ وانما هو صوت وسط بين ذلك مطرد منكسر أشبه شيء بالماء الفاتر يريد ان يجرى جريانا سواء فتعترضه عقبات يسيرة جدا يتغلب عليها وينشأ عن ذلك فيه تهدج وانحطام بين حين وحين ، فمنظره يؤذيك والاستماع له يضنيك والفهم عنه يشق عليك والوصول الى نفسه يرهقك من امرك عسرا .والحكم الذى تكونه فى نفسك حين تقبل عليه أو تنصرف عنه هو انه غلطة من غلطات الطبيعة وفلتة من فلتات الدهر ، ووهم من اوهام الظروف . كانما أريد به الى ان يكون حيوانا من هذه الحيوانات الضخمة ذات الخلق المرتبك والشكل الذى لا يروق، ثم عدل به فى اللحظة الاخيرة الى شكل

الانسان فلم يحسن تقويمه ، ولم يعتدل قده ، ولم يتسق شكله، ولم ينفخ فيه من الروح الانسانى العاقل الا جزء ضئيل ؟

كذلك تحكم عليه حين تلقاه وكذلك تحكم عليه حين تفارقه لولا انك مضطر الى ان تنكر هذا الحكم انكارا وترفضه رفضا وتعترف كما اعترف بان له حظا عظيما من الذكاء والفطنة ؛ وبانه يدبر أمره فى حياته الخاصة والعامة تدبير المستبصرين أولى الذكاء النافذ والذهن المتوقد والعقل الذى لايعيا بالمشكلات ولا يرتد عن معضلات الامور . وانت حائر كل الحيرة فى هذا التناقض بين مايظهر من شكله ومن عقله، وبين مايصدر عنه من الاعمال والاقوال التى لاتصدر عن غفلة ولا عن غباء

ومصدر هذا التناقض الذى تضيق به وتراه لغزا معضلا وتريد ان تلتمس له الحل فلاتجد الى حله سبيلا، انك لم تعرفه كما اعرفه ، ولم تظهر من امره على ما اظهر عليه . فصاحبنا اعجوبة من غير شك ، ولكنها اعجوبة لاتكاد تثبت لمن يعرفه حق معرفته . وسبيل ذلك ان تصحبه يوما كاملا، يوما يأتلف من النهار والليل. فالنهار وحده لايفسره والليل وحده لايجلوه ولابد من ان يتعاون هذان الفرسان اللذان يستبقان دائما ولا يستطيعان ان يجتمعا فى مستقر واحد، لابد من ان يتعاون هذان الفرسان على تفسير غامضه وتجلية امره لانهما قد اقتسما نفسه اقتساما كاملا

فللنهار منه نصيب لايعرفه الليل، ولليل منه نصيب لا يبلوه النهار، واية ذلك ان عين الفجر لم تره قط الا مغرقا فى نوم ثقيل أو غارقا فى سكر عميق، وان عين الضحى المشرق لم تره قط الا يقظان الجسم نائم النفس . وان صدر الليل لم يره قط الا مرحا فرحا خفيفا رشيقا كانه لايحمل هذا الجسم الضخم الثقيل وانما يحمل جسما قد صور من الهواء ، فهو لايسكن الا ليتحرك ، ولا

يستقر الا ليضطرب ولايسكت الا ليتكلم . وهو لا يتكلم بهذا الصوت الفاتر المتكسر ، وانما يتكلم بصوت مرتفع عريض يملا الفضاء ويسمع من بعيد ، وهو لايجد مشقة ولا جهدا فى رفع جفنيه، ولاقى التنفس من انفه الدقيق الضئيل، وابتسامته تلك الغافلة البلهاء تستحيل الى ابتسامة اخرى فيها كثير جدا من الفطنة وفيها كثير جدا من الذكاء

وهو على كل حال ليس نائما اذا جنه الليل وانما هو ابعد الناس عن النوم واعظمهم حظا من اليقظة ، بل قل انه يقظة كله ، يقظة لاتنام ولاتنيم . وانما توقظ الناس من حوله ولعلها تزعجهم ازعاجا، فهو حياة ثائرة فائرة، وهو حركة هائجة مائجة، وهو تفكير متصل لايعرف الانقطاع ، وكلام مسترسل لايعرف الوقوف

فله نفسان، نفس قد صحبت النهار تنام فيه وتؤذن الناس بانها مستيقظة ، ونفس قد صحبت الليل ، تسهد فيه وتخيل الى الذين لايالفونه انها نائمة . وكل مايصدر عنه من الاعمال التى تصور الذكاء ومن هذه الاقوال التى تصور الفطنة انما هو من وحى نفسه المستيقظة فى الليل، تقدره وتدبره ثم تهيئه وتدخره لنفسه النهارية النائمة فيصدر عنها كما تصدر الاحلام عن النائمين

ولم يكن هذا حاله منذ مارس حياة الرجال وانما طرا عليه قليلا قليلا كما تطرا بعض العلل على بعض المرضى . فقد كان فى المدرسة الثانوية واثناء الدراسة الجامعية فى مصر وفى اوربا فتى كغيره من الفتيان يشارك اترابه فى الدرس ويشاركهم فى العبث والمرح ، ولكنه يمعن فى الدرس اكثر مما كانوا يمعنون ويبلغ من النجح اكثر مما كانوا يبلغون . فاذا اقبلوا على مرحهم استوفى منه حظا اعظم من حظوظهم ، والح فيه الحاحا كثيرا ماكانوا

ينكرونه عليه ويلومونه فيه ، فلم يكن يلقى لومهم الا بالسخرية ولم يكن يستقبل اعراضهم الا بالازدراء

وماله لا يفعل ذلك واسرافه على نفسه فى اللهو لا يقصر به عن اتقان الدرس والتفوق على اترابه فيه . وما الذى يمنعه ان يعطى نفسه من لذة العقل اعظم حظ ممكن، وان يعطى جسمه من لذة الحس اكبر قسط مستطاع . ولماذا ينصف نفسه بما يتيح لها من لذة العلم والمعرفة، ويظلم جسمه بحرمانه لذة العبث والمجون . وكذلك انشأ لنفسه فلسفة خاصة لاءمت حياته فى اوربا ملاءمة ما ولكنها لم تلائم حياته فى مصر . فللأوضاع الاجتماعية فى مصر خصائصها التى تفرض على الناس، ولا سيما حين يشغلون المناصب ويرضون الرؤساء ويرقون رقيا سريعا ، ألوانا من الوقار وضروبا من الاحتشام تضطرهم الى شىء من الجد والحرمان ان كانوا اصحاب عبث ومجون

ومن أجل ذلك ضاق صاحبنا بالحياة اول الامر ضيقا شديدا انتهى به الى سأم شديد، وكاد ينتهى به الى يأس مظلم ، فقد رأى ابواب العلم والمعرفة والدرس والبحث مفتحة له على مصاريعها . ورأى فرص اللهو والعبث نادرة ووسائلهما محدودة وابوابهما لا تكاد تفتح الا قليلا ، ولا تكاد تفتح الا لتغلق ، فاذا هم ان يلج منها الى ما يريد اضطر الى كثير من الحذر والاحتياط لان الاوضاع الاجتماعية فى ذلك الوقت كانت تفرض الحذر والاحتياط . وقد هم ان يرضى نفسه ويهمل حسه وان يمعن فى لذة العلم ويزهد فى لذة الاثم، ولكنه لم يلبث ان آنس من نفسه زهدا فى المعرفة وانصرافا عن الدرس وفتورا عن البحث والدرس . ونظر فاذا هو يوشك ان يكون موظفا كغيره من الموظفين الذين يضطربون من حوله خاملين لا يضيقون بالخمود والخمول ، بل لا يشعرون بالخمود والخمول، وانما هم راضون عن انفسهم وعن حظوظهم ، قد اطمأنوا الى الحياة واطمأنت اليهم الحياة

وكان صاحبنا ابعد الناس عن الرضى وابغضهم للاطمئنان واشدهم طموحا الى الرقى وطمعا فى الامتياز، فلم يكد يفكر ويقدر حتى استيقن ان فلسفته لك قد خلقت له وانه خلق لها وانها وحدها هى التى تستطيع ان تبلغه مايريد من علو المنزلة وارتفاع المكانة ومادام لايرضى بالقليل ولا يقنع بما يقنع به عامة الموظفين ولا يكفيه ان يخطو الى الامتياز خطوات متئدة معتدلة وانما يريد ان يخطف الطريق خطفا وينهبها نهبا ويأتى بما لم تستطعه الاوائل كما يقول ابو العلاء، فلا بد من ان يلجأ الى فلسفته فيحيا بها ويحيا لها

وقد فعل فاعتزل الناس الا قليلا. جعل يلقاهم فى الديوان حين يغدو على عمله فى الديوان وجعل يلقاهم آخر النهار ان اضطرته الظروف الى ان يلقاهم آخر النهار، ولكنه جعل لايكاد يستقبل الليل حتى يبتسم لظلمته المظلمة ابتساما مشرقا، ويمد اليه يد الصديق ويفتح له قلب الخليل ويتحدث اليه كما يتحدث الحبيب الى الحبيب

اتخذ الليل سميرا ونديما واتخذ الشراب سميرا ونديما واتخذ الكتاب سميرا ونديما ايضا فجعل كلما اقبل الليل خلا اليه والى كتابه وشرابه ففكر وقرأ وكتب، واحتسى بين ذلك الكأس اثر الكأس حتى اذا تولى الليل الا اقله وكادت توالى نجمه تتغور كما يقول ابن ابى ربيعة، اعرض عن الشراب كارها وانصرف عن الكتاب محرجا يضطره الى هذا الانصراف وذلك الاعراض انه لايستطيع ان يمسك الليل ولا ان يرد النهار، وان للقراءة والتفكير والشراب اثرا فى العقل والجسم جميعا فلا بد من الراحة بعد التعب ومن النوم بعد السهاد الطويل. فهو اذن يسعى سعى المقيد فى الوحل كما يقول مسلم بن الوليد حتى يبلغ سريره فيلقى نفسه عليه القاء ويستسلم للنوم استسلاما وما اكثر ماكان يقبل على السرير والنوم وهو يبغضهما

اشد البغض، ويمقتهما اقبح المقت، ولكن لابد مما ليس منه بد . على ان النوم لايلبث ان يطبق عليه اطباقا ويضمه ضما عنيفا ثقيلا قصيرا ايضا

فهو يستيقظ قبل ان يرتفع الضحى ويغدو على عمله كما تعرفه نائما او كالنائم ممضى فى هذا الذهول الغريب . وقد طالت تجربته لهذا النوع من لحياة او لهذين النوعين المختلفين من الحياة حتى افهما الفا متصلا . واصبح لايستطيع ان يحيا الا كما نراه نحن فى النهار ، كما يراه الله وقليل من الاخلاء فى الليل

على ان حياته هذه المختلفة لم تلبث الا قليلا حتى ظهرت آثارها فى رايه وعمله وسيرته مع الناس . فهو اذكى من ان يامن السكر على آرائه واعماله واقواله فهو من اجل ذلك قد اساء الظن بنفسه فجعل لايرى رايا الا اطال التفكير فيه والتقليب له قبل ان يعلنه، يتهم فيه ليله هذا السكران ويخشى ان يدفعه الى غير الصواب . وهو لايقدم على عمل الا بعد التردد المتصل وبعد الاحجام الطويل، وهو لايقول قولا الا بعد ان يزنه كما يزن الصيرفى دنانيره بميزانه الحساس الدقيق . ثم جعل سوء ظنه بنفسه يقوى ويشتد ويمتد حتى تناول الناس جميعا ، واذا هو لايصدقك اذا استمع اليك كما انه لايطمئن الى ماتهدى اليه من قول او عمل، لانه يتهم الناس جميعا فيما يقولون ويعملون كما يتهم نفسه فى كل مايعمل ويقول، ويريد سوء حظه او حسن حظه لا ادرى ان تبتسم له الايام ويستجيب له الحظ فيرقى ويرقى ويسرع اليه الثراء ، واذا هو يشعر كما يشعر غيره من الناس بانه فى حاجة الى ان يكون لنفسه اسرة ويؤسس لنفسه بيتا فيتخذ الزوج ولكنه لاينعم بالزواج الا اياما . فقد صرفته زوجه عن ندمائه . الليل والشراب والكتاب صرفته فانصرف اول الامر ثم لم يلبث ان ادركه السام فجعل يرد نفسه الى ندمائه

هؤلاء شيئا فشيئا . وهو كلمارد من نفسه جزءا الى ندمائه حرم زوجه هذا الجزء من نفسه فسعد هو وشقيت هى حتى اذا عادت نفسه كلها الى ندمائه نعم بسعادته الكاملة وشقيت بحرمانها الكامل. وعاش الزوجان فى دار واحدة ولكن كلا منهما اصبح لصاحبه عدوا يظهر الحب ويضمر البغض

قلت لصاحبى حين بلغ هذا الموضع من حديثه او تظن الامور تستقيم لهذا الكائن الغريب على هذا النحو الغريب من انحاء الحياة. قال صاحبى : هيهات وكيف تستقيم الامور لرجل يسامر ظلمة الليل التى تعشى الابصار وظلمة الخمر التى تغشى البصائر ، الم انبئك بان حبه لهذه الظلمات قد افسد عليه حياته الروحية ودفعه الى الاسراف فى سوء الظن بنفسه وبالناس ، ومتى استقامت الامور لمن يقيم حياته على الاسراف فى سوء الظن بنفسه وبالناس .

ضيف

القى كل واحد منهما الى صاحبه نظرة دهشة واجمة، فيها كثير من هذه الغفلة الحائرة التى تنشأ من المفاجاة والتى تلم بالآمن المطمئن حين يفجاه من الامر مالم يكن ينتظر ، بل مالم يكن يخطر له ببال ، وكانت النظرة التى القاها كل منهما الى صاحبه خاطفة اول الامر، ولكنها عادت فطالت واستقرت شيئا ما، ولزمت مع ذلك صمتا، ان صور شيئا فانما يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الحيرة على العقل فلا يفكر ،وعلى القلب فلا يشعر ، وعلى اللسان فلا يقول

وقد لبث كل منهما ازاء صاحبه ذاهلا غافلا لايعرف ماذا يصنع ولا يدرى كيف يقول ، ولو قد عرض لهما هذا اللقاء المفاجىء لاصابتهما الحيرة وقتا طويلا او قصيرا ، ولتهيأ آخر الامر الى مخرج من هذه الحيرة بكلمة تنفرج عنها الشفاه ، او ضحكة تنفغر لها الافواه . ولكنهما فى موقفهما هذا لم يكونا يستطيعان ان يخرجا من حيرتهما الصامتة الى الضحك او الى الكلام . فقد كان بينهما هذا القبر القائم يضطرهما الى شىء من الوقار لايملكان معه ضحكا ان اراد الضحك، ولا كلاما ان اراد الكلام.

وهما من اجل ذلك قد لبثا صامتين واجمين. يلتمسان مخرجا من هذا الصمت، ومنصرفا عن هذا الوجوم، فلا يجدان الى شيء من ذلك سبيلا. وقد اخذ كل واحد منهما يحدث نفسه بالانصراف عن هذا القبر، يرى في هذا الانصراف فرجا من هذا الحرج، ومخرجا من هذا الضيق، ولكن كل واحد منهما كان يسأل نفسه ابدا هو بالانصراف ام ينتظر حتى يضطر صاحبه الى ان ينصرف ؟ وانهما لفي هذه الحيرة المتصلة، واذا خطر يسمع وقعه من بعيد، فيرفعان راسيهما وينظران من حيث يسمعان، فاذا شخص يقبل بطيئا رزينا متكلفا للوقار، ولايكاد يدنو منهما حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما نفسه، فهو صديقهما الثالث الذي تعود ان يلقاهما حين يقبل المساء من كل يوم ؛ وان يسمر معهما حيث تعودوا ان يسمروا في ناد من اندية القاهرة اول الليل ؛ وان ينصرف معهما الى حيث تعودوا ان ينصرفوا حين يوشك الليل ان ينتصف ؛ فيلقون في بعض الاندية الخاصة من يلقون من رفاق اللهو وخلان العبث والمجون ؛ حتى اذا كاد الليل يبلغ ثلثيه اوى ثلاثتهم الى تلك الدار التي تعودوا ان يأووا اليها في آخر الليل، وقد خلصت نفوسهم حظ اللهو، وصفت ضمائرهم للعبث، وحسن استعدادهم للمجون او قل ان شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنا لك يكون شرب الكؤوس الاخيرة ؛ وهنالك تنطلق الالسنة بما تشاء في غير تكلف ولا تحرج، وهنالك ترسل النفوس على سجيتها في غير احتياط ولا تحفظ، وهنالك يخلع الانسان عن نفسه هذه الخصال المصطنعة التي فرضتها الحضارة على المتحضرين، ويصير الى حال من الانسانية المترفة الفاجرة التي تنحط بصاحبها، او ترتقي بصاحبها لادري، الى حيوانية مترفة لا ادب فيها ولا وقار . حتى اذا انهزم الليل وولى مدبرا وانتصر الصبح واقبل ظافرا ؛ انسلوا من هذه الدار لاتكاد اقدامهم تحملهم ولا تكاد اجسامهم تسع نفوسهم ؛ ولا تكاد السنتهم تنطق، ولا تكاد عقولهم تفكر ؛ ولا تكاد قلوبهم تشعر ، لانهم قد اسرفوا على انفسهم

فى الاستمتاع بانسانيتهم المهذبة، التى نعمت حتى افسدها النعيم وأثرت حتى اطغاها الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء الى الدرك الاسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار متثاقلين متهالكين يسندهم الخدم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على شىء من الجهد فى السيارة . يظهر الاكبار له ويضمر الاستهزاء به ، ثم يمضى بهذا المتاع الغالى الرخيص حتى ينتهى به الى داره ، وحتى يرد منه الى اهل الدار شيئا عظيما جدا فى اعين الناس حقيرا جدا فى عين نفسه وفى عين اهله ، وهو هذه البقية التى تركها الصبا واللهو والخلاعة والمجون

فاذا تقدم النهار وارتفع الضحى ، وزالت الشمس او كادت تزول ، افاقت هذه البقية الباليةمن نومها الثقيل الغليظ وتلقاها عمال الترف اولئك الذين يجددون البالى ويحسنون القبيح ويقيمون المتهدم ويردون الشباب الى من فارقهم الشباب . وما هى الا ساعات حتى تستانف هذه البقايا البالية حياة جديدة فيها نشاط وقوة ، وفيها جمال ونضرة ، وفيها شوق مجدد الى اللهو وفيها نزوع مستانف الى المجون . ولا يكاد النهار يبلغ اخره حتى يخرج من هذه الدور اشخاص فيهم كثير من المرح ، وكثير من الفتون وكثير جدا من الجهل والغرور

واذا هؤلاء الاشخاص يلتقون فى ناديهم الذى تعودوا ان يلتقوا فيه ، فتكون الدعابة الفاترة وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون المزاح السخيف ، ويكون الاقبال الفاتر على العبث الفاتر ، وكلما تقدم الليل ازداد النشاط واشتد المرح وعظم الخطر من العربدة ، واخذ كل جسم من هذه الاجسام يصير ثوبا قد دخلت فيه نفس جنية طغى عليها الهوى وجمحت بها الشهوة ، واندفع بها حب الاثم الى غير حد واذا هم يستانفون ليلا ، كليلهم الماضى ويستقبلون حياة ناعمة يائسة كحياتهم الماضية ، ويعودون الى دورهم مع الصبح بقايا محطمة لا تريد شيئا ، ولا

تقدر على شيء ولا تصلح لشيء حتى يشتمل عليها النوم فيرد اليها شيئا من قوة. ثم يتناولها عمال الترف الذين يرفعون البالى ويجددون القديم حتى يردوا هذه البقايا البالية اشخاصا قادرة مريدة. ولكنها لا تقدر الا على الفساد، ولا تريد الا الاثم والمجون

ولكنهم فى هذه المرة لم يلتقوا فى ناديهم ذاك الذى تعودوا ان يلتقوا فيه حين يقبل الليل، وانما التقوا فى مكان لم يكن يشتظر ان يلتقوا فيه، ولا ان يذهب اليه واحد منهم، فليس فيه لهو وليس هو مظنة للهو، وليس فيه سمر، ولا هو مظنة للسمر، ومتى لها الناس بين القبور؟ ومتى سمر الناس حول قبر لم تمض على اقامته الا اسابيع قليلة؟ كيف ذهب هؤلاء النفر الى هذا المكان الموحش فى قلب الصحراء؟ وكيف التقى هؤلاء النفر حول هذا القبر الذى لم تستقر فيه صاحبته الا منذ امد قريب؟ هذه هى المسألة التى القاها كل واحد منهم على نفسه فوجد الجواب عليها سهلا يسيرا، وهم ان يفكر فيها ويستقصى التفكير ويتعمقه، لولا انه لم يخلق للتفكير ولا للاستقصاء ولا للتعمق، وانما خلق للعبث، والمجون الذى يفسد المروءة ويذهب بنضره الاجسام والنفوس

فلم يكد ثالث القوم يرى صاحبيه حتى اخذهما اخذهما من الدهش وعراه ماعراهما من الذهول، وغشيه ماغشيهما من الوجوم، ولكنه لم يملك نفسه طويلا، وانماهم ان يضحك ثم استحى من الغير فولى مدبرا وتبعه صاحباه، حتى اذا بعدوا عن هؤلاء القوم اللذين لاتزاور بينهم ولا وصل الا ان يكون نشور كما يقول ابو نواس، تساءلوا كيف كان سعيهم الى هذا المكان، ووقوفهم عندهذا القبر، والتقاؤهم على غير ميعاد

وقد جعل بعضهم يكذب بعضا فى شيء من الحيرة المتلدة او من التبلد الخائر، ولكنهم تواصفوا ماراوا ووازنوا بين ما سمعوا فلم يروا بدا من ان يصدق بعضهم بعضا، ولم يروا بدا من ان يعترفوا بهذا الامر الغريب العجيب الذى كان خليقا ان يملأ قلوبهم روعا ونفوسهم هولا، لولا انهم تعودوا ان يجدوا فى الكأس ما يغسل قلوبهم من كل روع، وينفى عن نفوسهم كل هول.

ولست ادرى الام صارت امورهم جميعا؟ ولكن اعلم ان احدهم على اقل تقدير قد ادركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة تشبه الخبل والمت به علة لست ادرى ايثبت لها أم يعجز عن أن يقاومها ويجد الى البرء منها سبيلا .

وقد تسألنى انت عن سعيهم الى هذا المكان الموحش فى الصحراء ووقوفهم عند هذا القبر الذى لم يقم الا منذ امد قريب ، والتقائهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين اخذت الشمس تنحدر الى مغربها ، وتجرر على هذه القبور اشعة شاحبة، ان صورت شيئا فانما تصور حزنا كانه كان صدى يردده الجو لهذا البلى الذى كان يعمل جاهدا فيما احتوته هذه القبور .

ولست اكره ان اقص عليك مصدر هذا كله . ولكنى اعتقد انك ستدهش لما اقص اليك من حديث . فانت وما شئت من الشك ، وانت وما احببت من الثقة وانما الشيء الذى اطمئن اليه انا كل الاطمئنان ، هو أنى انما احدثك بشيء قد وقع واصور لك فى هذا الحديث امرا قد كان، وكل ما اتمنى هو الا يعرض لك مثل ماعرض لهؤلاء النفر الثلاثة الذين افسد عليهم امرهم ما اغرقوا فيه من عبث ولهو ، ماتهالكوا عليه من اثم ومجون

كان هذا القبر الذى التقوا عنده مستقرا لغانية حسناء رائعة الحسن، بارعة الجمال ، فاتنة الظرف ساحرة الطرف ، تعودوا ان يلقوها فى تلك الدار التى كانوا ياوون اليها من اخر الليل ويستنفدون فيها ما بقى لهم من قدرة على المجون والعبث، وكانت تلقاهم لقاء سواء تعدل بينهم فيما تهدى اليهم من ظرفها وخفتها ومن رشاقتها واناقتها ولباقتها ، ومن هذا التودد الذى يغرى ويطمع حتى يخيل الى المرء انه مشرف على الغاية ، ومنته الى الامد ، وبالغ مايريد ، ثم هو لاينتهى به مع ذلك الا الى اليأس المهلك، والقنوط الذى يملأ القلوب لوعة وعذابا، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل :

ومنيتى حتى اذا ما ملكتنى ... بقول يحل العصم سهل الاباطح
تناءيت عنى حين لا لى حيلة ... وغادرت ما غادرت بين الجوانح

ولكنهم كانوا اجهل جهلا ، واحمق حمقا ، وافرغ افئدة ،

واسخف عقولا ، من ان يتمثلوا الشعر او شيئا يشبه الشعر . انما كانوا اصحاب لذة غليظة جافية يشقون ليتنعموا. وينعمون ليشقوا، ويألمون ليلذوا، ويلذون ليألموا دون ان يوازنوا بين شقاء ونعيم ، او بين لذة والم ، قد دفعوا الى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس ، فهم مندفعون الى الحياة لا يفكرون فى نعيم ولا بؤس . دفعهم الى هذه الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا فى كسبه عناء ، وتربية لم تمنحهم أحلاما راجحة ولا بصائر نافذة، ولا قلوبا قادرة على ان ترتفع عن اللذات المادية الاثمة والشهوات المندفعة الجامحة

فكانوا اذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خليلات اللهو ورفيقات العبث والمجون يجدون فى هذا اللقاء حبا وبغضا، ورضى وسخطا وانجاحا واخفاقا. ولكنهم قد اتصلت نفوسهم جميعا بهذه الفتاة اتصالا شديدا وتعلقت قلوبهم بها تعلقا عنيفا. واشتدت امالهم فيها وعظم يأسهم منها حتى اخذ بعضهم ينفس على بعض مايصدر عنها من لفظ ولحظ واشاره. وحتى كاد بعضهم يصبح فيها لبعض عدوا . وهم على ذلك كانوا يجتمعون ويفترقون لا يزيدهم الاجتماع الا تنافسا وتباعدا ولا يزيدهم الافتراق الا حرصا على التدانى وتكلفا باللقاء

وقد اخذ كل منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم انها تؤثر فلانا من دونه ، ويشتد حقده على فلان ومكره به، وكيده له ، حتى كاد الامر ينتهى بهم الى اعظم الشر . ولكن الايام اراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم هذا الشر المستطير، لانها اختطفت من بينهم هذه الغادة الحسناء فى حادثة من هذه الحوادث التى تنقل الناس من الدار الاولى الى الدار الاخرة فى طرفه عين. فاجتمعت قلوبهم على الحزن والثكل وحزن هؤلاء وامثالهم لا يتصل ولا يطول ، فما هى الا ايام حتى يستانفوا حياتهم كما الفوها عابثة ماجنة وسخيفة فارغة .

ولكن احدهم يفيق من نومه مروعا ، مفزعا ، شديد الذهول فقد راى طيف هذه الغادة الحسناء يلم به فى اثناء نومه

الثقيل فيذود عنه النوم ويرده الى يقظة شديدة . واذا هو ينظر فيرى صاحبته كما تعودان يراها فاتنة ساحرة تدنو منه وتتلطف له وتتودد اليه ، وتقول له فى صوتها العذب الذى يسحر القلوب : ما كنت احسب انك ستتركنى حبيسة انا وحيدة مستوحشة لا تهدى الى زيارة ولا تحدث بى عهدا ، ما اسرع ما نسيتنى وانى على ذلك لم انسك ، ولا يمكن ان انساك . الم بدارى قبل ان يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه وينظر فلا يرى شيئا . ويتسمع فلا يسمع شيئا . وينهض فيستانف حياته كما تعودان يستانفها كل يوم لا يلقى بالا الى ما راى ولا يلقى بالا الى ماسمع ، فاذا كان الغد جاء الطيف كما جاء امس وتحدث اليه بمثل ما تحدث به امس

وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة ، حتى لم يشك فى ان من الحق عليه ان يلم بهذا القبر وان يهدى اليه تحيته فى طاقة من الزهر . وقد فعل ، فلم يكد يبلغ القبر حتى راى صاحبه ولم يكد يقوم على القبر مع صاحبه حتى اقبل صاحبهما الثالث . فلما انصرفوا عن القبر قص احدهم على صاحبه ما راى وما سمع . فاذا كل واحد منهما قد راى مثل ما راى ، وسمع مثل ما سمع ، وابطا مثل ما ابطا ، ثم اقبل على القبر كما اقبل عليه يحمل اليه التحية وطاقة من الزهر

اتراها ارادت ان تستبقى بينهم المنافسة والخصام بعد موتها ، وان تضطرهم الى ان يحفظوا لها من الود مثل ماكانوا يظهرون لها قبل ان يموت ؟ ام تراها اضغاث احلام قد عبثت بنفوس هؤلاء النفر الثلاثة . ولكن كيف يتفق ان يلم الطيف بهم فى يوم واحد ويتراءى لهم فى صورة واحدة ، ويلقى اليهم حديثا واحدا او يضرب لهم موعدا واحدا

قلت لصاحبى حين انتهى من حديثه الى هذه الاسئلة ، لا ادرى ولا استطيع ان افتح عليك ، فسل من شئت من الجامعيين الذين يدرسون دقائق علم النفس فلعلك تجد عندهم غناء

رم خفيف

لاتخدعى عنه ياسيدتى انك ترينه مكينا ركينا، ورزينا رصينا يسعى هادئا اذا سعى ويمشى مطمئنا اذا مشى ، ولكنك لم تريه حين يأخذه المرح ويستخفه النشاط اذا خرج للرياضة فى الصحراء مصبحا او ممسيا . ولوقد رأيته اذ ذاك لعلمت انه يحسن الجرى ويجيد العدو ويتقن الوثوب فى الهواء والتلوى فى الفضاء ، ولخيل اليك ان جسمه الضخم العريض القوى المتين لم يركب كما ركبت اجسام الناس ، وانما وصلت اجزاؤه بلوالب تمتد ان اراد لها امتداد ، او تنقبض ان اراد لها انقباضا ، وانك ترينه معتدل الحركة مقتصدا فيها، ان حرك راسه كانما شد عنقه من بين كتفيه بأمراس الكتان الى صم الجندل كما يقول الشاعر القديم . بل هو اقدر على أكثر من ذلك فهو مالك لاجزاء وجهه يحرك منها مايشاء حين يشاء ويسكن منها مايشاء حين يشاء ويحركها كلها احيانا، اذا اراد ان يسخر ويبهر او ان يرهب ويخيف ولو رأيته حين يستخفه الطرب ويستهويه نعيم الحياة لرأيت رجلا لايملك من امر نفسه شيئا، وانما هو حركة متصلة مضطربة، لا حظ لها من وقار ولا نصيب لها من اعتدال، كانما فقدت هذه القوة الارادية التى تحرك الاجسام

بمقدار وتسكنها بمقدار وتلائم بين عواطف القلب وحركات الجسم ملائمة الذين لاتتسلط عليهم الغرائز وانما تدبر امرهم العقول؟

وانك تسمعينه يتحدث فاذا صوت هادىء متزن ولفظ مطمئن متئد ، وحكم يظهر فيه القصد وتشيع فيه الاستقامة ويأخذه الاعتدال من جميع اقطاره ، ولوقد سمعته حين يثيره الغضب او حين يزدهيه الخوف ،اوحين يغلبه الرضى على امره، لعرفت كيف يرتفع الصوت حتى يصم الاذان وكيف يضطرب اللفظ حتى لايستقيم تاليفه على نحو من انحاء الكلام المالوف ، وكيف يختلط الحكم حتى لاتدركه العقول ولاتسيغه القلوب، وانك ترين عليه زينه تأخذ الابصار وشارة تستهوى العقول .

ولو رأيته حين يتخفف ولايتكلف ، لرأيت الاهمال الذى تقتحمه العيون والابتذال الذى تزور عنه النفوس ، وانما هى حياة الناس ياسيدتى تقوم على التكلف اكثر مما تقوم على الاسماح وتجرى على الرياء اكثر مما تجرى على الاخلاص ، وتمضى على الكذب اكثر مما تمضى على الصدق ،وتعطى من الناس صورا ليس بينها وبين حقائقهم سبب ،وتردد من اصوات الناس اصداء ليس بينها وبين حقائقهم سبب ،وتردد من اصوات الناس اصداء ليس بينها وبين نفوسهم صلة ،قد جرى فيها الخداع كما يجرى الماء فى الغصن الرطب ، وسرى فيها النفاق كما تسرى النار فى الحطب الجزل،انك ترينه ياسيدتى يذهب ويجىء فترضين لانه انما يذهب ويجىء فى ثوبين خلع احدهما على نفسه وخلع الاخر منهما على جسمه . وهو كغيره من الناس يلبس هذين الثوبين حين يريد ان يفارق نفسه للقاء نظرائه، ويخلع هذين الثوبين حين يريد ان يفارق نظراءه ليخلو لنفسه. وصدقينى ياسيدتى انى لم اخطىء حين شبهته منذ حين بالاوزة التى تعبث فى مجتمع من الماء ، انك ترينها من بعيد فيعجبك منظرها تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها فى الماء مقبلة مدبرة وخافية ظاهرة، وارتفاعها فى الجو طائرة مقاربة

فى الطيران تخفق بجناحيها خفقالايخلو من ظرف وتبعث صيحات تؤذى الاذن ولكنها لاتخلو من فرح ومرح، وقد يروقك شكلها حين تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها ورفعت عنقها الطويل برأسها الخفيف وعرضت للضوء والهواء صدرها الجميل . كل هذا يعجبك ويخلبك ، وقد يروعك ويروقك فتسعين الى مجتمع الماء هادئة مطمئنة ، تودين لو استطعت ان تبلغى الشاطىء، وتقفى من الاوزة غير بعيد وتديرى بينك وبينها بعض الحديث . ولكنك لاتلبثين أن تذكرى ان حماقه الاوز قد ضربت بها الامثال منذ العصور القديمة فى غير أمه من الامم وفى غير لغة من اللغات . واذا انت تلقين على الاوزة الجميلة نظرة طويلة فيها كثير من حزن، وفيها كثير من اشفاق ، وفيها كثير من ازدراء، لان طبيعتنا تنبو عن هذا التناقض بين الظواهر التى تخيل اشياء كثيرة والدخائل التى لاتحقق شيئا . وليس على صاحبنا بأس من ان يشبه الاوزة فى شكله وعقله، لانه لم يخلق نفسه، ولم يلائم بين هذا الجسم الثقيل والعقل الخفيف، وانما هى حكمة الله التى نفهم ايسرها احيانا ونعجز عن فهم اعظمها فى اكثر الاحيان

وقد عرفت صاحبنا معرفة دقيقة متصلة منذ ايام الطفولة والصبى، وفى ايام الشباب والكهولة، واستطعت ان اقطع بأن كل شىء من حوله كان يهيئه ليكون أوزة ناطقة فقد نشأ فى أسرة موسرة من أسر الريف . وكان عطف أبويه عليه شديدا . فقد كانا يرفقان به مصبحا وممسيا ، ويتعهدانه بالعطف واللطف اناء النهار وزلفا من الليل ، وكانت أمه ترأمه وتعطف عليه عطفا خاصا كما تعرف الام الجاهلة الغافلة كيف ترأم ابنها وتعطف عليه

وكان أخص مظاهر حبها له وبرها به عنايتها بطعامه فقد كانت تصبحه بخير مايصبح به أبناء الموسرين فى القرى من هذه الالوان التى تلذ الافواه وتملأ البطون وتشيع فى الاجسام ضخامة وغلظا . ثم كان لايعود اليها من لعبه أو من كتابه او من

مدرسته الا وجد عندها طعاما تلقيه فى فمه او تدسه فى جيبه او تضعه فى يده . فنشأ شرهامتهالكا على الطعام ، وانفق صباه وشبابه يعلف فى اسرته كما يعلف الاوز فى تلك البيئات التى تتخذ تنمية الاوز تجارة ومكسبا

وبمقدار ماكانت اسرته تعنى بجسمه فتسرف عليه فى المطعم وتتأنق له فى الملبس ، كانت هذه الاسرة ترفق به أشد الرفق فيما يتصل بالدرس من قريب اوبعيد فلم تكن تشق عليه فى الملاحظة اذا عاد من المدرسة، ولعلها كانت تضطره الى الاعراض عن القراءة والمذاكرة ، فقد كانت تخاف عليه من ايسر الجهد وتكره له الانحناء على الكتاب وتشفق على عينيه من ضوء المصباح . وكثيرا ماتقدم أبوه الى معلمه فى الكتاب والى أساتذته فى المدرسة فى الا يكلفوه من الدرس شططا . فهو لا يهيأ ليتخذ من العلم صناعة ولا من المدرسة وسيلة الى كسب الحياة. وانما هو يذهب الى المدرسة كما يذهب اليها اترابه من ابناء الاسر ليتعلم فيها مايرتفع به عن الجهل وما يميزه من اهل القرية التى يعيش فيها. ولكن الصبى كان يحب ان يتعلم لا رغبة فى العلم أو حرصا عليه ولكن عنادا لابويه هذين اللذين كانا يقتران عليه فى الدرس ويسرفان عليه فى الطعام والشراب . فقد سار الصبى فى درسه سيرا قصيرا فلم يكن متفوقا، ولم يكن شديد الغباء، وانما كان شيئا بين ذلك حتى اذا أتم دراسته الثانوية رأى الحكومة تختار المتفوقين من اترابه فترسلهم الى اوربا ليتموا الدرس ويعودوا بعد ذلك ليشغلوا مناصب الدولة ويختلفوا الى المكاتب فى الدواوين. ورأى بعض الاسر الغنية ترسل المقصرين من ابنائها عن نيل الشهادات المصرية الى اوربا لينالوا الشهادات الاوروبية. ونظر فاذا اترابه الذين كانوا يتفوقون عليه والذين كانوا لا يبلغون منزلته يسافرون الى اوربا. فلم لا يسافر كما يسافرون ، ولم لا يعبر البحر كما يعبرونه؟ وليسوا اكثر منه مالا ولا أبرع منه جمالا ولا أحسن منه شارة ولا أجمل منه زيا ولا

أرقى منه ذوقا فى اختيار ادوات الزينة التى يتجمل بها الشبان المترفون . ثم هو يلوى لسانه بالرطانة الاجنبية كما يلوون بها السنتهم ثم هو يحسن التصرف فى اشياء لا يحسنون التصرف فيها . واذن فلم يتاح لهم السفر ويقضى عليه ان يكون من المتخلفين

ولم يجد مشقة فى ان يظفر من اسرته بالاذن له فى هذا السفر الطويل. فقد مانعت الام وبكت وشكت ولكن الاب اجاب ابنه الى ما اراد راضيا عنه، مغتبطا به، فقد كان يحب ابنه اشد الحب ويعجب به اشد الاعجاب ويرى فى سفره الى بلاد الانجليز فخرا اى فخر وامتيازا اى امتياز. وقد ذهب الفتى الى بلاد الانجليز واقام فيها ماشاء الله ان يقيم وعاد منها لم يتعلم شيئا الا التأنق والتحذق والبراعة فى اللسان حين يتكلم الانجليزية والعربية جميعا . والافتنان فى ارتضاع الببة كما يرتضع الطفل ثدى امه

عاد من بلاد الانجليز لم يتعلم غير هذا شيئا وهو واثق مع ذلك انه قد تعلم كل شىء. وقد اتيح له من ظروف الحياة المصرية ومن جاه ابيه ما وصل اسبابه باسباب الحكومة. فعمل فى ديوانه مترفا اشد الترف ، فارغا اشد الفراغ ، مشغولا بصغائر الامور مصروفا عن عظائمها .

ثم كانت الحركة الوطنية واضطراب السياسة واختصام الاحزاب وانقسام الناس بين هذه الاحزاب مؤيدين ومعارضين ومنتفعين من المعارضة والتأييد. ومنذ ذلك الوقت تولت الظروف الارتقاء بصاحبنا من منصب الى منصب، ومن منزلة الى منزلة، حتى هيىء له من المكانة ما تعلمين . واغرب شىء فيه ما ترين من اجترائه على التحدث فى كل شىء والعجز عن ان يقول شيئا، ومن براعته فى النزول بعظائم الامور وجسام الشؤون الى حيث تصبح ضئيلة يسيرة مبتذلة، يرتفع عن الحديث فيها من اتاح الله له

حظا من معرفة او نصيبا من امتياز . وهو على ذلك منتفخ منتفش ، يرى نفسه عظيما ، ويراه كثير من الناس عظيما، فاذا حققناه لم نجد وراء هذه العظمة شيئا لانها عظمة منحولة مدخولة لاتعتمد على شيء من شخص صاحبها بقدر ماتعتمد على الباطل والغرور . وقد تسألين كيف ارتقت به هذه العظمة الكاذبة من درجة الى درجة ، ومن مكانة الى مكانة، ولكنى ارجو ان تكونى اقل سذاجة من هذا ياسيدتى . فليس ينبغى ان تسألى عن الضعفاء والعاجزين كيف يرتفعون . فذلك ملائم لطبيعة الاشياء ، وانما ينبغى ان تسألى عن الاكفاء كيف يثبتون فى مواضعهم وكيف يتاح لبعضهم ان يرقى الى شيء من امتياز المنصب وارتفاع المكانة فذلك هو المخالف لطبيعة الاشياء، المباين لمنطق الدنيا. كما يقول كاتب اديب من اصدقائنا

والشيء المحقق هو انى لم ار صاحبنا قط مقدما على شيء او محجبا عن شيء ، او مجادلا لخصم او مناظرا لصديق الا هممت ان اقول له ما قال ابن شهيد لاوزته تلك الاندلسية فى تلك القصة الظريفة التى جرت بينه وبين حمير الجن وبغالها :

يا ام خفيف ، بالذى جعل غذاءك ماء ، وحشا راسك هواء ، الا ايما افضل : الادب ام العقل ؟ قالت : بل العقل . قال ابن شهيد : هل تعرفين فى الخلائق احمق من اوزة ، ودعينى من مثلهم فى الحبارى ؟ قالت : لا . قال ابن شهيد : فتطلبى عقل التجربة ، اذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ، فاذا احرزت منه نصيبا ، وبؤت منه بحظ فحينئذ ناظرى فى الادب

قالت السيدة متضاحكة : ليكن صاحبنا اوزة اودجاجة اوماشئت من ذوات الاجنحة والريش ، ولكن حدثنى عن هذا البدع الذى اخذت فيه منذ حين . فقد جعلت لااسألك عن احد الاضربت له من الحيوان مثلا . قلت واى بدع فى ذلك ياسيدتى انما هو فن قديم

من فنون الادب . أليس العرب قد شبهوا الانسان بالحيوان منذ اول الدهر ! أليس الله عزوجل قدشبه بعض الناس بالكلب الذى ان تحمل عليه يلهث أوتتركه يلهث ، أليس الله عز وجل قد ضرب الحمار الذى تحمل عليه الاسفار مثلا للذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . أو لست قد حدثتك انفا بقصة ابن شهيد مع اورته تلك الاندلسيه، حين حاورها فى روضة من رياض الجن بمحضر من زهير بن نمير وبمشهد من الحمير والبغال التى كانت تنشده اشعارها . فماتنكرين من ذلك ،والله لم يخلق الاشياء عبثا وانما جعل فيها لنا منافع، ودعانا الى ان نعتبر بكل ماخلق من الحى والميت وأن نلتمس فيه الموعظة التى تبصر القلوب والحكمة التى تهدى العقول

قالت السيدة وقد ثابت الى الجد وكانت اديبة اريبة تحفظ الحديث وتقرا القرآن: هذا حق،واقرا ان شئت قول الله عزوجل فى سورة النحل : والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين »

الغانيات

– من اين اقبلت يا ابنتى !
– من حيث لاتبلغ الظنون ..
– ماذا تريدين يا ابنتى ؟
– اريد مالا تقدرون ...
– كيف تقولين يا ابنتى ...
– اقول مالاتصدقون !
– اسرفت فى الرمز ياابنتى .
– بل مالكم كيف تحكمون !

وينظر الشيخ حوله فلا يرى من يحاوره ، وينكر الشيخ نفسه لولا شكوك تساوره ، فقد راى شخصها الجميل ، تظله هذه الغصون ، ولم يزل صوتها الضئيل، يثير فى نفسه الشجون، وكانت الشمس قد تولت ، كالامل الخائب الكذوب ، وظلمة الليل قد اظلت ، كاليأس اذيغمر القلوب

وقد لبث الشيخ مكانه قائماواجما ، يرفع راسه الى السماء حينا ، ويخفض راسه الى الارض حينا اخر ، ويقلب طرفه فى الفضاء بين ذلك ، يلتمس هذه الفتاة الانيقة الرشيقة ذات الوجه النضر والقد المعتدل . هذه التى بدت له رائعة بارعة على انها

لم تتخذ زينة ولاحليا ، ولم تتخذ من الثياب ماتعـــودت الفتيات الحسان اتخاذه ، وانما بدت له ساحره باهر، تحيط بها هاله من الفتنة الفاتنة، على ما كان يسترجسمها الغض البض من ثوب هو الى السذاجة القروية ادنى منه الى تكلف المدن ، وهو الى البلى ادنى منه الى الجدة

فلما رآها انكرها، ثم دار بينه وبينها هذا الحوار الذى ابتدىء به هذا الحديث والذى لم يفهم منه شيئا ، والذى كان يريد ان يمضى فيه حتى يعلم من الفتاة علمها ويظهر على جلية امرها ولكنه ينظر فلا يراها ، ويدعو فلا يسمعها ، ويبحث فلا يجدها فيلبث فى مكانه حائرا مرتاعا، يكاد يكذب عينه فيما رات واذنه فيما سمعت لولا ان صورتها تلح على نفسه فتملاها جمالا وسحرا ، ولولا ان صوتها يلح على قلبه فيشيع فيه طربا حزينا

وقد طال وقوف الشيخ وطالت حيرته واخذت الظلمة تغمر الاشياء من حوله ، وكان خليقا ان ينسى نفسه فى موقفه هذا الغريب ، لولا انه سمع ذلك لصوت الضئيل العذب يقول له : اسرع ايها الشيخ الى صلاتك فقد اوشكت ان تفوتك واوشك المؤذن ان يدعو الى العشاء الثانية . لاتبحث عنى فلن تراني من ليلتك هذه

ولم يكد الشيخ يسمع هذا الصوت حتى ثاب الى نفسه وثابت نفسه اليه، وذكر انه قطع حديثه مع الباشا فجاة، وانصرف عنه عجلا ليشهد صلاة المغرب والعشاء مع جماعة الناس كما تعود ان يشهدها فى مسجد القرية الذى يقوم فى طرف من اطرافها غير بعيد من القصر ، وانه ليسعى فى طريقه الى المسجد واذا هذه الفتاة تتراءى له من بين هذه الشجرات التى تقوم عند اخر الحديقة وتمد اغصانها متكاثفة مختلطة ، كانها تريد ان تتخذ منها للقصر ستارا جميلا صفيقا ، وقد اسرع الشيخ الى صلاته وهو يحدث نفسه بانه سيؤديها منفردا وسيؤدى العشاء الثانية مع جماعة الناس، ولكن الصوت الجميل الضئيل كان يتبعه قائلا له لاتذكرنى لاحد ، ولا تتحدث عنى الى احد

فانك ان فعلت لم تجن من ذلك الا شرا . ولا يستطيع الشيخ ان ينكر ان ظهور هذه الفتاة له واحتجابها عنه وتحدثها اليه وتشييعها له ، كل ذلك قد ملا قلبه فرقا ، لم يسكت عنه الا حين دخل المسجد واستقبل القبلة مقيما للصلاة ، ولو اطاع الشيخ نفسه لتحدث الى اصحابه بعد ان فرغوا من صلاة العشاء الاخرة بما راى وما سمع ، ولكنه كان كلما هم بذلك او بشيء منه رد نفسه عنه ردا عنيفا مخافة ان يظن الناس به الظنون من جهة ومخافة هذا النذير الذى القته الفتاة اليه من جهة اخرى

وقد راح الشيخ الى اهله حين تقدم الليل ، وكانت نفسه تنازعه ان يتحدث اليهم ببعض ما راى وما سمع ولكنه ردها الى الحزم وحملها على الصمت ، مخافة ان يظن اهله به الظنون وان يتحقق هذا النذير الذى القته اليه الفتاة فاستقبل الليل كارها لهدوئه ، وطلب النوم جاهدا فلم يظفر به الا بعد انتظار طويل ولم ينعم به بريثما من الاحلام المزعجة والاطياف المروعة ، ولم يعرف الهدوء الا حين استقبل النهار المشرق واضطرب مع اهل القرية فيما تعود ان يضطرب معهم فيه من شئون الحياة .

ولم يزر الباشا من يومه ذاك ، كانه قدر ان هذه الفتاة ستعرض له بين تلك الشجرات مستظلة بتلك الغصون المتكاثفة فى طرف الحديقة مما يلى القرية . وقد شهد صلاة العشاء بن مع اصحابه واستقبل ليلة هادئة ، واستقبل نهارا مشرقا هادئا ، حتى اذا ارتفع الضحى ، سعى الى القصر يريد ان يزور الباشا فى النهار الواضح المبصر ، لا فى الاصيل الشاحب الذى يسعى الى الاظلام او يسعى اليه الاظلام ، والذى تعرض فيه الفتيات الحسان فى ظل الاغصان . ولكنه راى الباشا مكتئبا مفرق النفس ، كان امرا ذا بال يهمه ، ويصرفه عن ادارة الحديث مع جلسائه كما تعود ان يدير الاحاديث فى لباقته ورشاقته وذكائه الحاد . وكان الشيخ اثيرا عند الباشا ، محببا الى نفسه ، مشيرا عليه فيما يعرض له من الامر ، فلما راى اكتئابه وابتئاس نفسه ، اطال المقام ولم ينصرف مع الناس حين انصرفوا . وانما استانى وتريث ، حتى اذا

خلا له وجه الباشا سأله مترفقا به عن هذا الامر العارض الذى أهمه واضطره الى ما هو فيه من هذا الحزن الكئيب

قال الباشاوعلى ثغره ابتسامة شاحبة وفى صوته تكسر حزين ما ادرى احدثك بهذا الحديث ام اطويه عنك ، فانى انكره اشد الانكار ، واكاد اخفيه على نفسى اشد الاخفاء . وقد هممت أن اسافر الى القاهرة لارى الطبيب ، ثم بدالى فدعوت الطبيب الى زيارتى ، وانى ان ينفق معى يومه اذا كان الغد ، والامد بيننا وبين القاهرة غير بعيد ، واليوم يوم الخميس ، فليس على الطبيب باس ان ينفق معنا يومه غدا

قال الشيخ : فانى لم افهم عنك ولم اتبين هذه الصلة الغريبة بين ما يظهر عليك من حزن ، وبين دعوتك للطبيب الى ان ينفق معك ساعات من نهار

قال الباشا : الم اقل لك انى انكر نفسى واخشى ان يكون قد الم بى بعض العلة ، فقد رايت امس ما روعنى ، وسمعت امس ما اخافنى ، وانى لاستحيى من نفسى حين افكر فيما سمعت وما رايت . وانى لاستحيى منك ان احدثك بما سمعت وما رايت

قال الشيخ وهو مهتم يتكلف الابتسام ، وصوته مضطرب يتكلف الثبات: ماذا سمعت وماذا رايت ؟ قال الباشا فى صوت يكاد يبين عن الجزع : سمعت صوتا لم اسمع قط اعذب منه .. ورايت شخصا لم ار قط اجمل منه . ثم انقطع عنى الصوت ، واحتجب عنى الشخص وترك فى نفسى ما ترى من حزن واكتئاب . وقد ذكر الشيخ ماراى ، وذكر ماسمع ، وهم ان يتحدث الى الباشا بمثل ما تحدث به الباشا اليه ، ولكنه خاف النذير فآثر الصمت . ومضى الباشا فى حديثه فقال : كان ذلك حين آذنت الشمس بالغروب وحين اخذت ظلمة الليل تغزو الفضاء ، وقد كنت اسعى فى هذه الحديقة فما راعنى الا فتاة بارعة الجمال ، رائعة القوام ، تنظر الى بطرف نافذ كانه السهم

.. فاسألها من هي ومن اين اقبلت ! والى اين تريد وماذا تبتغي ! فلا اسمع منها الا اجوبة غامضة لا افهم منها شيئا ، فهي مقبلة من حيث لا اظن ، وقاصدة الى حيث لا اقدر ، ومريدة مالا استطيع ، وقائلة مالا افهم . واريد ان استوضحها ، واذا شخصها يستخفي مني ، واذا صوتها يناى عني شيئا فشيئا وهو يقول لابد مما ليس منه بد . خير لك ان تقدم على الامر طائعا راضيا من ان تقدم عليه كارها مضطرا . وقد سمعت هذه الكلمات الاخيرة يلقيها الى صوت غريب كانه الصدى

ولم يشك الشيخ حين سمع حديث الباشا في ان صاحبته تلك التي عرضت له في طرف من اطراف الحديقة هي التي عرضت لصاحب القصر ، وهي التي تحدثت اليه ، ولكنه على ذلك لم يفض الى الباشا بذات نفسه وانما قال له متضاحكا لو علمت انك تسمع لي لطلبت اليك ان تفعل كما افعل ، وان تقرا اجزاء من القرآن في كل يوم تذكر الله بتلاوتها ، فان ذكر الله يملأ القلوب امنا واطمئنانا ويرد عن النفوس مايروعها ويؤذيها من الخوف والريب . وقد احسنت اذ دعوت الطبيب وما ارى الا ان مقدمه سينفعني فسأستشيره في بعض ما اجد من الضعف وان كنت لا انتظر منه خيرا كثيرا ، فان هذا الضعف الذي اجده لادواء له لانه ضعف شيخوخة والهرم

وتنقل الرجلان في احاديث شتى مختلفة اشد الاختلاف يسلي كل منهما بهذا التنقل نفسه وصاحبه عن هذه الصورة الملحة ، وهذا الصوت المتصل ، وهذا النذير الغامض الغريب . وقد حرص الشيخ على ان ينصرف عن القصر قبل ان تصلي العصر حتى لا يرى ذلك الشخص ، ولا يسمع ذلك الصوت ولكنه يقبل الى المسجد حين يدعو المؤذن الى صلاة المغرب ولا يكاد يبلغ الباب حتى يرى شخصين غريبين قد قام كل واحد منهما على جانب من جانبيه . وينظر الشيخ في شيء

من الروع الى احد هذين الشخصين، فلا يشك فى انه يرى الفتاة التى رآها فى طرف من اطراف الحديقة ، وينظر الى الشخص الآخر فاذا هو صورة مطابقة للشخص الاول كانما كل واحد من هذين الشخصين تمثال لصاحبه يطابقه اشد المطابقة ويصوره ادق التصوير، ويرى الشيخ على ثغر كل من هذين الشخصين ابتسامة حازمة صارمة ولكن فيها عذوبة تنفذ الى قلبه فتملأه امنا وروحا . وقد رفع الشيخ صوته حين رأى هذين الشخصين بتلاوة ماتيسر من القرآن، ولكنه يسمع الصوتين يتلوان معه ماكان يتلو ويجد تلك العذوبة التى وجدها حين كانت الفتاة تتحدث اليه وتحاوره فى ظل تلك الغصون ، فيسرع الى المسجد مخافة الفتنة وينغمس فى جماعة الناس ، وقد اشفق على نفسه من شر عظيم

ولست فى حاجة الى ان اصور ماملأ قلب الشيخ من روع وروعة، ومن خوف ومن ومن يأس ورجاء ، فقد كان يحب ان يرى هذه الصورة ويشفق من رؤيتها ، وقد كان يرجو ان يسمع هذا الصوت ويخاف من سماعه ، وقد جعل يحيا حياة مضطربة بين هذه العواطف المتناقضة . واقبل الطبيب فسمع من الباشا وتحدث اليه وامتحنه ولكنه لم يغن عنه شيئا . وما كان الطبيب يغنى عنهما ولا عن غيرهما شيئا ، فما هى الا ايام حتى كثر هذا الشخص او كثرت صور هذا الشخص فى القرية وجعل كل واحد من اهل القرية يراه حين يغدو الى عمله مع الفجر وحين يروح الى اهله مع الاصيل . وجعل كل واحد من اهل القرية يسمع منه ويتحدث اليه مصبحا وممسيا. يرتاع لمنظره وصوته اول الامر ، ثم يألف منظره ويطمئن الى صوته، ويشتاق الى ان يراه بين الفجر والاصيل ، ويشتاق الى ان يسمعه فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار

وقد جعل اهل القرية يتحدثون اذا التقوا عن هؤلاء الفتيات الحسان اللاتى يعرضن لهم فى الغلس حين يطلق النهار سهمه المضيء فيشق به ظلمات الليل ، وفى الاصيل حين يطلق الليل سهمه المظلم فيبدد به ضوء النهار . وجعل اهل القرية يتحدثون عن هؤلاء الفتيات الحسان المطمعات المغريات اللاتى يبدون لهم ويدنون منهم ويدعونهم اليهن فى شيء من الفتنة ولكنها فتنة نقية لا اثم فيها ولا حرج، ولا لوم فيها ولا تثريب

وجعل اهل القرية يسألون الشيخ عن هذا الحدث الغريب الذى الم بقريتهم منذ حين فغير حياة الناس فيها تغيرا شديدا ، واثار فى قلوبهم آمالا لا حد لها، ويأسا لا حد له، وغير راى بعضهم فى بعض ، وغير رايهم جميعا فى الباشا هذا الذى كانوا يؤمنون له ويدعنون لسلطانه ويبرون طاعته عليهم حقا ، ويرون انهم ملك له كما ان ارضه ملك له.. الا انهم يحيون والارض لاتحيا ويرون انهم ملك له كما ان ماشيته ملك له ، الا انهم يعقلون وينطقون والماشية لاتعقل ولاتنطق ، تغير رايهم هذا فى الباشا فاصبحوا يرونه واحدا منهم ،لايمتاز من بينهم بشيء ، فهو رجل من الرجال يذهب ويجيء ويأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ويتكلم بالصواب حينا وبالخطأ احيانا ، واذن فلم يستأثر من دونهم بهذا النعيم ! ولم يستطيل عليهم بهذا السلطان ، ولم يسعد حتى تبطره السعادة ويشقون هم حتى يضطرهم الشقاء الى اليأس والقنوط ! ولم تبسم الحياة له حتى يضيق بهذا الابتسام ، وتعبس الحياة لهم حتى يهلكهم هذا العبوس ، ولم يكسل هو حتى يضطره الكسل الى المرض . ويعملون هم حتى يضطرهم العمل الى الموت

شاعت هذه الاحاديث بين اهل القرية فامتلات بها مجالسهم حين يجتمع بعضهم الى بعض وامتلات بها بيوتهم حين يخلو كل منهم الى اهله وذوى قرابته، وارتقت الى الباشا فصادفته قلقا قد ملا قلبه الخوف والاضطراب ، واذا هو يؤثر ان يترك القرية الى القاهرة .ليتحدث عن محنته هذه فى قريته

الى بعض اولى الراى من اصحابه ولا يكاد يبلغ القاهرة ويفضى بذات نفسه الى بعض نظرائه حتى يسمع منه حديثا ليس اقل من حديثه خطرا، ولا ايسر منه شيئا ، فاهل القرى كلهم يتحدث هذا الحديث ، واهل المصانع كلهم يتحدث هذا الحديث ، والعاملون فى الدواوين والمصارف والشركات، والعاملون فى الشوارع والطرق والمواصلات كلهم يتحدث هذا الحديث قد اختلط الامر وعظم الشك ، وشاع فى النفوس امل لاحد له ، وشاع فى النفوس يأس لاحد له ، وشاع فى الجو كله سحاب لايدرى عما ينجلى ، اعن امن ورخاء ، ام عن بؤس وشقاء . وكان عدد السكان فى مصر ثمانية عشر من الملايين فاصبح عددهم ستة وثلاثين مليونا ، لان كل فرد من افراد هؤلاء المصريين قد وكلت به فتاة حسناء حازمة صارمة باسمة تبعث ابتساماتها فى القلوب املا مخيفا . وكره الباشا ان يعود الى قريته لانه كره فتاته تلك الحسناء فى حديقته تلك الغناء . ولكنه خلا الى نفسه ذات يوم فى مكتبه المطل على النيل واراد ان ياخذ فى بعض عمله واذا هو يحس حركة فاذا التفت راى فتاته الحسناء وعلى ثغرها ابتسامة ساحرة وهى تقول فى صوتها ذاك الضئيل الجميل لابد مما ليس منه بد اقدم طائعا راضيا ، فذلك خير من ان تقدم كارها مضطرا

وقد كتب الباشا الى الشيخ يدعوه الى القاهرة ليشاوره فى بعض مايمكن ان يصنع ليرضى الساخط ، ويامل القانط ، ويامن الخائف ، ويعمل الكسل ، محببا للعمل لا زاهدا فيه . قال الباشا للشيخ حين خلا اليه : الا تنبئنى عن هذا البلاء العظيم الذى نمتحن به فى هذه الايام الشداد . قال الشيخ مبتسما : لاتسلنى انا عن هذا البلاء وسل عنه فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتى ملان علينا ارض مصر جمالا واملا وخوفا واشفاقا . قال الباشا : ومن عسى ان تكون هؤلاء الفتيات ! قال الشيخ : لا ادرى ولكنى كلما سالت واحدة منهن عن اسمها رفعت كتفيها وابتسمت عن ثغر جميل وقالت ساخرة : تريد ان تعرف اسمى فاسمى هو « العدالة الاجتماعية » ..

انكريه ياسيدتى ان شئت او اعرفيه . فكلا الامرين منك سائغ ، وكلا الامرين منك مقبول ، وان تنكريه فقد انكرت نعم شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن ابى ربيعة ، وان تعرفيه فقد عرفت اسماء شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن ابى ربيعة ، وانت ياسيدتى ادبية اريبة تذكرين من غير شك ما تحدث به فتى قريش عن صاحبتيه حيث يقول :

قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرى الذى كان يذكر
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن ... وعيشك أنساه الى يوم اقبر
فقالت نعم لاشك غير لونه ... سرى الليل يحيى نصه وا تهجر
لئن كان اياه فقد حال بعدنا ... عن العهد والانسان قد يتغير
رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت ... فيضحى واما بالعشى فيخصر
اخا سفر جواب ارض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث اغبر
قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
واعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق اخضر

فاى المذهبين تختارين ؟ مذهب نعم هذه التى انكرت الشاعر وجعلت تسأل عنه فى سحر يميز جها العطف . ام مذهب اسماء

التى عرفته وجعلت تحدث نفسه فى عطف يمازجه الاعجاب ؟ وانى لمسرف حين القى عليك هـذه الاسئلة واخيرك بين هذين المذهبين فانى لم اسمع منك منذ ساعة الا انكارا لصاحبنا هذا المسكين ونعيا عليه ، ترينه كثير الكلام وقد كان كثير الصمت ، وترينه كثير الحركة وقد كان صاحب رزانة ووقار ، وترينه مقصرا فى ذات الصديق وقد كان من اشد الناس وفاء للصديق ، وترينه مستكبرا مستعليا وقد كان متواضعا غاليا فى التواضع وترينه يقول غير الحق وقد كان لايؤثر على الحق شيئا . وترينه مداورا مناورا وقد كان ابغض الناس للمداورة وازهدهم فى المناورة واحرصهم على ان يسلك الى مايريد طريقا مستقيمة غير منحرفه ، ومستوية غير ملتوية ، وواضحة لايحتاج سالكها الى الهدى والاعلام . وترينه حذرا هيابا ومتحفظا محتاطا وقد كان جريئا مقداما ، لا يخاف شيئا ولا يخاف احدا ولا يعدل عن الصراحة الجلية الى الاشارة الغامضة او التلميح الذى يلبس فيه الحق بالباطل والصواب بالخطأ والصحيح بالمحال

وقد كنت تعرفين وجهه مشرقا صافى الاشراق مبتهجا نقى الابتهاج مبتسما حلو الابتسام ، فاصبحت ترين وجهه مظلما تمام الاظلام تغشاه بين حين وحين سحابة رقيقة ضئيلة من اشراق طارىء لايثبت ان تتمحى آيته ويعفى الاظلام على اثاره واصبحت ترين فى عينيه حزنا ملحا حالكا يصور نفسا مكلومة حزينة كانما يغمرها ندم متصل لاتكاد تخلص منه الا لتعود اليه . واصبحت ترين على ثغره ابتسامة تمر سريعة بين حين وحين تحاول ان تثبت فلا تستطيع ، كانما وكل بها من اعماق الضمير حرس يأبون عليها ان تثبت او تستقر . وقد ترين على ثغره ابتسامة تقيم فتطيل الاقامة ولكنها ابتسامة شفافة لا تشف عن نفس مبتهجة او قلب مطمئن او ضمير راض وانما تشف عن كآبة وسأم وقلق ، هى ابتسامة مجلوبة قد تعلم صاحبنا ان

يضعها على ثغره وان ينزعها عنه كما يضع صاحب العمامة او الطربوش عمامته او طربوشه على راسه . متى شاء وينزعهما متى شاء . ترين اشياء كثيرة تنكرينها لانك لم تعهديها من قبل وتلتمسين اشياء كثيرة فلا تجدينها وقد كنت لاترين غيرها من قبل وانت من اجل ذلك تنكرين فتسرفين فى الانكار . وتلومين فتغرقين فى اللوم . وليست الى جانبك اسماء توضح لك الغامض وتجلو لك الخفى وتقص عليك من امر صاحبنا ماتجهلين، والانسان قد يتغير كما يقول عمر بن ابى ربيعة . وما اكثر الاشياء التى تغير الناس فتحولهم عن العهد وتنقلهم من طور الى طور وتمحو منهم خصالا كان الاصدقاء يعرفونها ويالفونها ويكلفون بها ، وتمحو مكانها خصالا اخرى ليس للاصدقاء بها عهد وليس من شانها ان تحسن فى نفس الصديق . وقد نبت عين نعم عن عمر لانها :

رأت رجلا جواب ارض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

فداكثر السفر والح فيه يسرى فى الليل ويهجر فى النهار فادركه مايدرك امثاله من الجهد والشعث. وجعلت اسماء تبين ذلك لصاحبتها فى عطف واعجاب . اما صاحبنا فلم يسر فى الليل ولم يهجر فى النهار ولم يدركه ما يدرك المسافرين من الجهد والشعث ، وانما ادركه شىء اخر هو الذى تسالين عنه فلا تهتدين اليه . وكيف تعرفينه او تهتدين اليه وانت مشغولة بحياته هذه الناعمه فى قصرك هذا الانيق، ومن حوله جنته هذه ذات الاشجار الباسقة والاغصان المتكاثفة وذات الزهر النضر والعشب الجميل ومع ذلك فلصاحبنا قصة رائعة شائقة لو عرفتها لرحمته وعطفت عليه، وله حديث رائع لو سمعته لمنحته شيئا غير قليل من الرثاء والاشفاق وستسالينني من غير شك ان اقص عليك قصته وانبئك بحديثه . فانت كغيرك من السيدات تمتازين بهذه الخصال التى تملا القلوب لكن حبا ومنكن خوفا وبكن اعجابا .

فيك رحمة لاحد لها وفيك قسوة لا حد لها . وفيك رغبة فى الاستطلاع لاتعرف لنفسها حدا تنتهى اليه ، ولست ارى بأسا من ان اقص عليك القصص وانبئك بالحديث . ولكنى اخشى الا تصدقى ماسألقى اليك من قول .

فقصة صاحبنا غريبة حقا . لو انها قصت على الناس فى الدهر القديم لصدقوها ولاطمأنوا اليها ، لان عقول الناس فى الدهر القديم كانت نقية لم تكدرها الحضارة ، وكانت قوية لم يضعفها العلم . فأما فى هذا العصر الذى نعيش فيه فقد كثرت الاعاجيب التى ترى وتسمع وتحس حتى اصبح الناس لايصدقون الاعاجيب التى تقص عليهم الا اذا راوها او سمعوها او احسوها . وقد حاولت ان ارى اعجوبة صاحبى بنفسى فلم افلح ، وقد كررت المحاولة مرة ومرة منذ حدثنى بقصته فلم أبلغ من ذلك شيئا . حاولت ذلك معه وحاولت ذلك منفردا فلم اظفر الا بالاخفاق ان كان الاخفاق شيئا يمكن ان يظفر به الناس . وانا مع ذلك اصدق القصة ولا انكرها ، لان صاحبى هو الذى قصها على ولانه لم يعودنى ان يحدثنى بغير الحق ، ولانه قص على قصته اثر خروجه منها وقبل ان تظهر عليه هذه الخصال التى تنكرينها ، ولان عقلى بعد هذا كله مستعد لتصديق مثل هذه القصص لانى عاشرت القدماء حتى اصبحت واحدا منهم . فعقلى تقى لم تكدره الحضارة التى لا آخذ منها كما تعلمين الا بمقدار ، وعقلى قوى لم يضعفه العلم الذى ليس لى منه كما تعلمين حظ قليل او كثير . .

وكان بدء ما الم بصاحبى من الخطب انه خرج ذات يوم مع الصبح يلتمس الرياضة ويسلى عن نفسه بعض الهم . فترك المدينة وامعن فى الصحراء يمضى امامه هادئا مطمئنا مستمتعا بهذا الحر الهادىء الذى تشعه الشمس حين تصحو وتصفو فى فصل الشتاء .. ولصاحبى عهد بالادب القديم فقد جعل يدير

فى نفسه بعض ما حفظ من شعر القدماء ذاك الذى يصور الصحراء وما فيها من وهادونجاد وما يضطرب فيها من حيوان وما يترقرق فى جوها من سراب . وقد مضى فى رياضته تلك وقتا لايعرف أطال أم قصر ، لانه نسى نفسه . وامتزج بماحوله ولكنه تنبه فجاة وقد فقد حر الشمس، وينظر فاذا سحب متكاثفة تاتى من الشمال بطيئة ثقيلة يزحم بعضها بعضا وقد هم ان يرجع ولكنه يرى برقا يخطف ويسمع رعدا يقصف ثم لا يعرف من امر نفسه شيئا . وانما هو شعور غريب غامض اشبه شيء بشعور النائم حين يداعبه حلم لذيذ . فهو يرى كان هذا البرق الذى كان يخطف قد خطفه هو ، فرفعه فى الجو رفعا سريعا رشيقا حتى انتهى به الى شيء يشبه ان يكون فراشا موطا وثيرا . وهو يحس كان هذا الفراش يسعى به سعيا رقيقا ولكنه سريع يذكره بعض ماكان يجد حين كان النوم يداعبه وهو فى مضجعه من السفينة والجو صفو والبحر هادىء والسفينة تجرى فى يسر تعينها عليه ريح رخاء . ثم يحس كان سريره ذاك الساعى فى الجو قد استقر على مكان ثابت مطمئن وكان صورا غريبة تشبه الناس ولا تشبههم قد حفت به فاجلسته وجعلت تتحدث اليه بلغة غريبة يفهم معانيها ولا يحقق الفاظها . ولكنه يؤكد انها ليست اللغة العربية التى يتكلمها عامة وقته وليست اللغة الفرنسية التى يتكلمها بين حين وحين . وليست لغة من هذه اللغات التى يسمع الناس يتحدثونها من حوله فيفهمها قليلا او كثيرا ، وانما هى لغة غريبة حقا ان امكن ان تشبه بشيء فقد تشبه بما يأتلف من هفيف النسيم وحفيف الاغصان وخرير الماء وغناء الطير ، وهو مع ذلك يفهم هذه اللغة حق الفهم لايجد فى ذلك مشقة ولا عناء كأنما تبلغ الفاظها الغريبة قلبه وعقله، فتستقر فيهما واضحة جلية دون ان تمر بأذنيه، ودون ان يحتاج لفهمها الى قليل أوكثير من التفكير . وقد حفظ

صاحبى بعض ما استقر فى نفسه من معانى هذه الالفاظ التى كانت تساق اليه او تلقى فى نفسه القاء . فقد القى فى نفسه انه قد اختطف من وطنه اختطافا ونقل الى الوطن السعيد الذى لايبلغه الناس لانهم لايجدون سبيلا اليه والذى لايستطيع الناس ان يحتملوا الحياة الطويلة فيه لانهم اضعف من ان يثبتوا لما فيه من حقائق الاشياء . واول حقيقة عرضت عليه من حقائق الاشياء هذه فرآها رأى العين، ولو اراد لتحدث اليها وسمع منها ولكنه لم يحتج الى ذلك لانها سعت اليه فى خفة ورشاقة فقبلت بين عينيه ، ولم تكد تفرغ من قبلتها حتى ملأت قلبه حبا لها وايمانا بها واطمئنانا اليها . اقول اول حقيقة من حقائق الاشياء هذه هى النجح . النجح الذى يبلغ الآمال ويقضى الآراب ويرضى الحاجة الى ارتفاع المنزله وعلو المكانة ، ويرضى الحاجة الى بسطة اليد ولمتداد السلطان . ويرضى الحاجة الى الامتياز والتفوق ، والى الاستعلاء والتغلب ، والنجح الذى يعيش الناس له ويجدون فى طلبه ويكدون فى التماسه ولكنهم لايبلغونه الا ليردوا عنه، ولايظفرون به الا ليصد عنهم لانهم لايعرفون له حقه ولا يلتمسونه من مظانه ولا يسلكون اليه الطرق التى تمكنهم منه وتسلطهم عليه . النجح الذى يطلبه الناس بما ورثوا من اخلاق وبما الفوا من عادات وبما حفظوا من تقاليد . يطلبونه من طريق الصدق والوفاء ، ويطلبونه من طرق النصح والاخلاص ، ويطلبونه من طريق العلم والمعرفة ، ويطلبونه من طريق الجهد والمشقة ، ويطلبونه من طريق العمل المتصل والاجتهاد المنهك للقوى المقصر للاعمار . ويطلبونه من هذه الطرق فلا يصلون اليه . لانها طرق قديمة قد ذهبت معالمها واصبح سلوكها حمقا والسعى فيها جورا عن القصد وانحرافا عن الجادة وتكلفا لما لايفيد .

ولو انهم سلكوا اليه طرقه الطبيعية التى لاتؤدى الا اليه

والتى لايستطيع سالكها ان يرجع ادراجه ، وانما هو يمضى من فوز الى فوز ومن ظفر الى ظفر . ولو انهم سلكوا اليه هذه الطرق لبلغوه فى غير جهد ولاخذوا بحظهم منه فى غير عناء وهم صاحبى ان يسأل عن هذه الطرق الطبيعية ولكنه لم يحتج الى السؤال ، فقد القى فى نفسه انها نقائض الطرق المألوفة فهى لا تحب صدقا ولا وفاء ، وهى لا ترضى عن النصح ولا الاخلاص ، وهى لاتستقيم للعلم والمعرفة وهى لاتحتمل الجد والكد وهى لاتطيق العمل والاجتهاد ، وانما هى تحب نقائض هذه الخصال جميعا . وهم صاحبى ان يسأل وكيف التخلص من الاخلاق المألوفة والعادات الموروثة والتقاليد المحفوظة ؟ ولكنه لم يحتج الى ان يسأل هذا السؤال . فقد القى فى نفسه ان شقاء الناس لايأتيهم من انهم لايقدرون على الاحتفاظ بخصال الخير او مايسمى خصال الخير . وانما يأتيهم من انهم لايقدرون على ان يتخلصوا من خصال الخير هذه . وانما هم دائما اشبه بالكرات تتقاذفها الفضائل والرذائل او مايسمى الفضائل والرذائل . ولو انهم خلصوا للفضائل لسعدوا لانهم يستريحون الى اليأس . ولو انهم خلصوا للرذائل لسعدوا لانهم يبلغون من الحياة الدنيا كل ما يريدون وشك صاحبى غير طويل . ثم هم ان يسأل كيف السبيل الى ان يخلص الانسان من الفضائل ويبيع نفسه للشيطان ولكنه لم يحتج الى ان يسأل هذا السؤال فقد قدمت اليه كأس صغيرة جميلة فيها شراب كدر اللون . وقيل له : احس هذه الكأس حسوا فانك ان تيت على اخرها انسللت من الخير كما تنسل الشعرة من العجين وانحطت عنك اثقاله كما تنحط اثقال النهار عمن يشمله نوم الليل . قال صاحبى وقد شربت هذه الكأس فى مهل فكنت كانما اشرب نارا تحرق جوفى تحريقا ، ولكنى كنت اجد لهذه النار المحرقة لذة لا استطيع ان اصورها ، وروحا لا ادرى كيف اصفه ، فلما فرغت من شرب الكأس

سمعت غناء لم اسمع اجمل منه قط ولم اسمع ابشع منه قط .
ولست ادرى وما اظن احـــد يدرى كيف يجتمع الجمال الرائع والقبح المروع فى صوت واحد . ولـكننى سمعت هـذا الصوت ثم انسيت نفسى، ثم افيق ِاذاانا فى مكانى ذاك من الصـحراء ولـكن لا ارى الشمس ولااحس حرها ولا ارى السحب المتكاثفة تسعى من الشمال بطيئة متثاقلة، ولا ارى برقا خاطفا ولا اسمع رعدا قاصفا وانما ارى ليـــلامظلما قد اطبـق على الصحراء اطباقا واضطربت فيه اشـــعة ضئيلة تأتي من هذه المصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا . وقد عدت الى المدينة بعد جهد. والحمد لله على ان اهـــلى لم يكونوا فى المدينة وانما كانوا فى الريف . ولو قـد رجت اليهم اخر الليل مجهودا مكدودا اشعث اغبر ، طائر اللب مفرق النفس، لانكرونى اشد الانكار . ولـكان بينهم وبينى حساب عسير لست ادرى كيف اخلص منه .

ثم اطرق صـاحبى اطراقـة طويلة عميقة رفع راسه بعدها الى وهو يقول : « وصـدقنى انى انكر نفسى اشد الانكار منذ تلك الرحلة الغريبه. ويخيل الى انى لا احيا مع الناس، وانما انا فى حلم متصل، ولغريب انى لم اكد استقبل النهار واتقدم فيه حتى دعيت الى شىء ارجـو ان يكون وراءه النجح »

وانت بعد ذلك يا سـيدتى تعرفين من امر صـاحبنا مثل ما اعرف قالت السيدة وكانت اديبة اريبة :« فاحذر ان تتعرض لهذا البرق الخاطف فانى احب ان اراك دائما كما انت » . قال محدثها « هيهات ياسيدتى انا اثقـــل وزنا من ان تخطفنى البروق »

لا اريد ان اسميه لانى لا اريدان يعرفه الناس ، وحسبى انه سيعرف نفسه . ولو استطعت ان اخفيه على نفسه لفعلت فانا أحبه اشد الحب، واوثره اعظم الايثار، واكره ان يأتيه من نحوى أيسر الجهد وأهون العناء واقل الاذى . وارى انى لا اتكلف له ذلك ولا اتصنعه وانما هو حق الصديق على الصديق ودين الخليل عند الخليل . ومالى لا ارى له هذا الحق ولا اعترف له بهذا الدين وقد استقبلنا الصبا رفيقين واستقبلنا الشباب زميلين واستقبلنا الكهولة صديقين . . لم تستطع حوادث الايام على كثرتها واختلافها ان تثير بيننا ايسر الخلاف فضلا عن ان تفرق بيننا فى الاراء والاهواء

نعم لقد استقبلنا الصبا رفيقين فجلسنا معا على حصير الكتاب ، واختلفنا معا بين يدى سيدنا لايكاد احدنا يفرغ من تلاوة ماحفظ من القرآن حتى يقوم الاخر مقامه ويتلو مثل ماتلا ثم نلتقى بعد ذلك فى مجلسنا ذاك فى ركن من اركان الكتاب فنتذاكر ماسمعنا من الفاظ اللوم والتشجيع التى كان يسوقها الينا سيدنا فى صوت يغلظ حينا حتى كانه الرعد ويرق حينا حتى

كانه النسيم ،وقلدنا هذه الحركات الطريفة التى كان يأتيها باحدى يديه ليحدث بها صوتا متلاحقا سريعا يحثنا به على ان نكرر التلاوة كرا ليتبين مقدار حفظنا للقرآن حتى اذا صليت العصر تركنا الكتاب غير ضيقين به ولا اسفين على تركه ، وانما نحن نتركه مفكرين فى العودة اليه اذا كان الغد ، ونتركه مبتهجين بانصرافنا عنه الى هذا اللعب الذى سنستأنفه فى زاوية من زوايا الدار أو فى ناحية ما على شاطىء القناة

نعم واستقبلنا الشباب زميلين نختلف الى مجالس العلم فى الازهر الشريف نجد حين نستعد للدرس وحين نسمعه وحين نجادل كل الاساتذه فيه ، ونلهو حين نفرغ من ذلك وحين نأخذ فى العبث بأساتذتنا وزملائنا وما كنا نرى ونسمع مما كانوا يعملون ويقولون . لاأذكر ولا أراه يذكراننا اختلفنا يوما مافى أمر ذى خطر ، وانما كنا متفقين دائما مؤتلفين دائما لانتكلف اتفاقا ولا ائتلافا ، وانما تجرى أمورنا هينة لينة ، وتمضى الحياة بنا على رسلها رفيقه رقيقه ، حتى لقد كنا نرى مايثور بين الاصدقاء والزملاء من هذا الخلاف العارض الذى يباعد بينهم من حين الى حين فنتكلف الضيق بحياتنا هذه التى لاتعرف خلافا ولا افتراقا فى الرأى . ثم لانلبث ان نثوب الى الضحك والابتهاج والرضى بحياتنا هذه الراضية المطمئنة

وقد فرقت حوادث الايام بين شخصينا أعواما طوالا او قصارا ولكنها لم تستطع ان تفرق بين نفوسنا وضمائرنا ولا ان تخالف بين اهوائنا وارائنا ، وانما لبثنا متفقين على البعد كما كنا متفقين على القرب، واتصلت بيننا رسائل مازلنا نعود اليها بين حين وحين كلما كلفتنا الايام من أمرنا شططا، ثم التقينا بعد الفرقة وتدانينا بعد التنائى واستأنفنا فى حياة الرجال مامضت عليه أمورنا فى حياة الصبية والشباب من هذا الود النقى والاخاء الرضى والتعاون على البر والمعروف

وليست حياة الناس تخلومما يؤذى ولا هى تبرا مما يسوء ، وليست حياة الناس تخلو من هذه الخصومات التى تفسد عليهم امرهم احيانا ، وتمتحهم القوة والايد وحب الجهاد والكفاح احيانا . وقدعرض لكل واحد منا حظه من هذا كله ولكن الغريب ان شيئامن ذلك لم ينل احدنا من قبل صاحبه وانما كان هذا ينالنا من قبل قوم آخرين ، فكنا نتعاون على احتمال الشر ودفع المكروه . وكان كل واحد منا يجد عند صاحبه مايجده الصديق عند صديقه من المواساة والعون والتسلية والعزاء

ثم مضت الايام على ماتعودت ان تمضى عليه مستانية متشابهة حينا ومتعجلة مختلفة حينا آخر ، وجرت فيها الحوادث تباعد بيننا بعض الشيء . ثم لاتزال تلح فى المباعدة بيننا حتى جعلنا ننفق الاسابيع والاشهر لانلتقى ، وننفق الاسابيع والاشهر لايكتب احدنا الى صاحبه شيئا . ولكنا كنا على ذلك نلتقى بين الحين والحين فلا يكاد احدنا يلقى صاحبه حتى ينشد ضاحكا قول الشاعر القديم :

نلبث حولا كاملا كله لا نلتقى الا على منهج
فى موسم الحج وماذا منى واهله ان هى لم تحجج

ثم نستانف حديثنا كاصفى مايكون الحديث بين الصديقين الصفيين :

وكانت اكثر احاديثنا لاتكاد تتصل بحاضرنا ولا بحاضر الناس ولا تكاد تتصل بمستقبلنا ولابمستقبل الناس ، وانما كانت تتصل بهذه الذكرى التى نسجت منها صداقتنا نسجا ، وصورت منها مودتنا تصويرا . وكانت هذه الذكرى الحلوة تكاد تشغلنا دائما عن حاضرنا وحاضر الناس ، وعن مستقبلنا ومستقبل الناس . ولكننا نلتقى ذات مساء فى هذا القطار الذى ينقل الناس من الاسكندرية الى القاهرة . ياخذ احدنا القطار فى الاسكندرية

وياخذه الاخر فى سيدى جابر وقد مضى القطار فى طريقه ولم يفطن احد منا لمكان صاحبه . ثم تكون لفتة منه فيراني فيسرع الى مستبشرا مبتهجا وهو يقول ماذا ؟ انت هنا ! والقاه مغتبطا محبورا وانا اقول : ماذا . انت هنا ! ثم يجلس كل منا الى صاحبه وما نكاد نفرغ من التحية التى تعودنا ان نتهاداها حين نلتقى حتى ناخذ فى حديث الجو ثم فى حديث السفر ثم فى حديث القطر التى تحسن الابطاء اكثر مما تحسن الاسراع، وتحسن التاخير عن مواعيدها اكثر مما تحسن الوفاء بهذه المواعيد . ثم عن الاسكندرية التى تزدحم بالقاصدين اليها والنازحين عنها ، وتموج بالمقيمين فيها، ثم عن جو الاسكندرية وجو القاهرة والموازنة بين مايكون بينهما من اختلاف فى الصيف ومن اختلاف فى الشتاء ومن توافق فيما يكون بين ذلك من الفصول . ثم ناخذ فى حديث الصحف الجادة والهازلة وفى حديث الادب القديم والادب الجديد، وننفق هذه الساعات التى ينفقها المسافرون بين القاهرة والاسكندرية متحدثين عن كل شىء الا عن انفسنا ملمين بكل شىء الا باحداث السياسة . وما كان اكثر مانلتقى فلا نتحدث الا عن انفسنا ، وما كان اكثر مانتحدث عن انفسنا فنعبث اثناء الحديث بالسياسة واصحابها ونتخذ من هذا العبث الوانا من المتاع الرفيع . اما اليوم فقد القى بيننا وبين انفسنا حجاب صفيق والقى بيننا وبين السياسة والسياسيين ستار كثيف ، وجعلنا نتحدث كما يتحدث الناس حين يلتقون على غير معرفة موثقة او مودة متينة قد برئت من التكلف والقيت عنها الحجب والاستار ، فهم حراص على الا يقول بعضهم لبعض ما يؤذى او يسوء . لماذا تعمدنا ان نجتنب الحديث عن ذات انفسنا ، ولماذا تعمدنا ان نجتنب الحديث حتى عن حاضرنا وحاضر الناس وحتى عن مستقبلنا ومستقبل الناس ، ولماذا انفقنا هذه الساعات الطوال لانتحدث الا فى هذه الموضوعات

التى لاتحطم شيئا كما يقول الفرنسيون ، ولماذا نسى كل واحد منا ان ينشد حين رأى صاحبه قول الشاعر القديم :

نلبث حولا كاملا كله لا نلتقى الا على منهج
فى موسم الحج وماذا منى واهلـه ان هى لم تحجج

سل السياسة عن هذا فهى التى تستطيع ان تخبرك الخبر اليقين ، وسل السياسة عن هذا فهى التى تحسن التفريق بين الاصدقاء والتقريب بين الاعداء، وهي التى تحسن ان تنسى الناس انهم كانوا رفاقا فى الصبا وزملاء فى الشباب واخلاء فى الكهولة . وسل السياسة فهى التى تحسن ان تقيم المنافع العاجلة مقام المودة الباقية ، وان تشغل الناس بساعتهم التى هم فيها عن ماضيهم ذاك الطويل ، وان تشغل الناس بما يقضون من منافع، وما يرضون من مآرب، وما يحققون من آمال عما وثقت الاسر بينها من عرى متينة وصلات كان ظن انها ابقى على الزمن الباقى من الزمن

وهل من الحق اننا لم نتحدث فى هذه الساعات الطوال عن ذات انفسنا ، وهل من الحق اننا لم نذكر فى هذه الساعات الطوال تلك الايام الحلوة التى امتلأت بذات الصبا والشباب . وهل من الحق اننا لم نعبث بالسياسة السياسيين واننا لم نعبث بانفسنا لانها اتصلت بالسياسة السياسيين ؟ وهل من الحق اننا انفقنا هذه الساعات الطوال ، هذه الاحاديث التى كنا نكره ان نخوض فيها والتى يستعين الناس بها على ان يحتمل بعضهم بعضا ، وهل من الحق ان هذه الاحاديث التى انفقنا فيها الساعات الطوال لم تعن احدنا على ان يحتمل صاحبه ، فكنا نستنجد بالسجائر التى نكثر من تحريقها ، وكنا نستنجد بماعند صاحب البولمان من القهوة والليمون والبرتقال . وكنا نستنجد بتكلف الفكاهة واختراع الدعابة نجذبها من شعورها جذبا كما يقول الفرنسيون . وهل من الحق ان احدنا لو عرف انه

سيلقى صاحبه فى القطار لقدم سفره أو اخره حتى لايكون هذا اللقاء وحتى لايكون الاضطرار الى هذه الاحاديث الفارغة التى لا تغنى عن اصحابها شيئا الا انها تعينهم على قطع الوقت وتمكنهم من ان يحتمل بعضهم بعضا

نعم كل هذا حق ، ولكن هناك حقا آخر لم اشكك فيه ولم يشك فيه صاحبى لحظة . وهو أن السنتنا كانت تهذى بما لايغنى وأن آذاننا كانت تتجرع هذا الهذيان ، وأن قلوبنا فى اثناء ذلك كانت تتحدث بما لم تكن تتحدث به السنتنا ، وان نفوسنا فى اثناء ذلك كانت تستمتع بما لم تكن تستمتع به آذاننا . فقد كان كل واحد منا يكذب على صاحبه اشنع الكذب بما يلقى اليه من هذا الكلام الذى لاطائل فيه والذى لايدل على شىء . وكان كل واحد منا يصدق صاحبه اعذب الصدق بهذا الحديث الذى لم تكن تجرى به الالسنة ولم تكن تتلقاه الآذان ، وانما كانت تخفق به القلوب ، وتستمتع به النفوس ، وتجد فيه العقول راحة وروحا وتجد فيه الضمائر رضى وامنا

اما انا فقد كنت اراني وما اشك فى ان صاحبى قد كان يرى نفسه معى فى ذلك المكان الضيق امام تلك الدار الصغيرة على شاطىء القناة ، وقد اظلتنا شجرات بسطت اغصانها الى ماء القناة من ناحية اخرى ، وقامت عليها الطير تملأ الجو بغنائها المتصل الرفيع وخفق اجنحتها المتقطع ، ونحن ناخذ فيما تعودنا ان ناخذ فيه من حديث وقد رفعنا اصواتنا ليسمع كل منا صاحبه ، فقد كان غناء الطير ، وحفيف الورق ، وهفيف النسيم ، وتصايح الصبية من حولنا ، وتنادى الرجال والنساء هنا وهناك ، كان هذا كله يوشك ان يحول بيننا وبين الحديث

نعم كنت اراني مع صاحبى فى هذا المكان وكنت اسمع قلبى يلقى الى قلب صاحبى حديث المودة والاخاء صفوا عفوا وعذبا نقيا ،

وكنت اتلقى من قلب صاحبى مثل ما كنت القى اليه ، على حين كانت السنتنا تهذى بسخيف القول لان ظروف الحياة قد اخذت تعلم الناس ان يخفوا المودة ويظهروا النفاق ، وان يسروا الحب ويعلنوا البغض ، وان يكذب بعضهم على بعض حتى فى ذات انفسهم ، وان يخيل بعضهم الى بعض ان الاسباب بينهم مقطعة وان الاسباب بينهم لموصوله . ولكن مهلا . ان اخفاء المودة يوشك ان يمحوها ، وان اسرار الاخاء يوشك ان يقتله وان التصريح بالكذب والنفاق ، واعلان التباعد والخصومة يوشك ان يجعل الكذب والنفاق والتباعد والخصومة اصولا لما نستانف من حياة .

وقد وصل القطار الى القاهرة ونهضنا يريد كل منا ان يروح الى اهله ولم يقل احد منا لصاحبه شيئا بلسانه لان لسانه لم يكن يقول الا كذبا ، وقال كل واحد منا لصاحبه كل شىء بقلبه لان قلبه لم يكن يقول عنه الا صدقا ، وراح كل واحد منا الى داره وان قلبه ليتقطع حسرات لانه لا يستطيع ان يبين عما فيه من حب دفين .

ابلغ الامر بنا ان نخافت بالمودة ونجهر بالنفاق ؟

اضغاث احلام

رأى فيما يرى النائم كأنه يسعى متروضا على شط دجلة حين اخذ الاصيل يحسر عن الارض والسماء فى اناة وريث ضوء الشاحب الحزين . وكان يسعى فى جنة فسيحة بعيدة الارجاء ، رائعة الحسن ، قد اختلفت مناظر مافيها من شجر وثمر وزهر وعشب . فهو يتنقل بين هذا كله مستانيا متمهلا يقف عند هذا اللون من الوان الزينة التى اتخذتها هذه الجنة فيطيل الوقوف ، وينظر اليه فيطيل النظر ، ولا ينتقل عنه الا حين يستيقن انه قد رسمه فى قلبه رسما صادقا ، وصوره فى ضميره تصويرا دقيقا . وكأنه كان يحس احساسا خفيا لايكاد يعلمه انه حالم لا عالم . فكان يريد ان يستيقن فى نفسه هذا الحسن البارع الذى يراه فى هذا الجمال الرائع الذى يتمتع به ، لينعم بهما اذا ردته اليقظة الى هذه الحياة البغيضة التى كان يضيق بها اشد الضيق ، لانها كانت تصور له آمالا عراضا ، وتقعد به عن بلوغ هذه الآمال . فكان يجد الالم المض والعناء الثقيل فى هذا الرجاء الذى ينفسح له وهذا اليأس الذى يقعد به . وكان

اله يزداد شدة وحزنه يزداد لذعا حين يرى مواكب هؤلاء الامراء والوزراء والكتاب واصحاب المكانة فى قصر الامين والمامون ، فتنازعه نفسه الى ان يكون واحدا منهم يشاركهم فيما يستأثرون به من الغنى والسلطان والجاه. ولكنه ينظر فاذا الاسباب بينه وبين ذلك مقطوعة لاتريدان تتصل . ومن اين لفتى من اوساط الناس وعامة اصحاب التجارة فيهم ان يرقى الى الكتابة او الوزارة او قيادة الجند

فكانت حياته منغصة بهذا الامل البعيد واليأس القريب . فلا غرابة حين راى مارأى فى احلام الليل ، ان يحرص على من يستبقى هذه المناظر الجميلة ، وهذه المحاسن الفاتنة ، ليتسلى بها اذا استيقظ عن يأس لايريم وامل لاينال

وانه ليتنقل فى حلمه بين هذه المناظر الخلابة الساحرة ، اذا هو يرى جارية حسناء ، فاتنة الحسن تتنقل مثله بطيئة متمهلة فى هذه الجنة الرائعة . ولا يكاد يرى هذه الفتاة حتى تقع من قلبه موقع الحب فتملأه حتى كانه لايستطيع ان يشتمل غيرها شيئا آخر . ثم يحاول أن يدنو منها ليتحدث اليها ، ولكنها تنأى عنه مسرعة وهى تقول فى صوت عذب ، ولفظ حلو : هيهات هيهات ، لم يؤذن لنا بعد فى ان نلتقى . ثم ينظر فاذا هى قد غيبت عنه ، واذا قلبه قد خلا منها ولم يستبق الا صورة ضئيلة جدا ان امتازت بشىء فانما تمتاز بالفتنة المغرية والقسوة المؤنسة

ويمضى فى طريقه هادئا ينحدر نحو النهر فى بطء فلا يكاد يخطو خطوات حتى يرى جارية اخرى ليست اقل من صاحبته الاولى رواء ولا بهاء ولكنها اكثر منها زينة ، واحسن منها شارة ، واذا هى تلقى اليه نظرة تضرم فى قلبه نارا اى نار ، فيرنو اليها من بعيد ، ويريد أن يدنو منها لينظر اليها من قريب ولكنها تنأى عنه مسرعة وهى تقول : هيهات هيهات لم يؤذن لنا بعد

فى ان نلتقى . ثم تغيب عنه كماغيبت عنه صاحبته الاولى ولكنها قد تركت فى قلبه صورة ضئيلة جدا ، واضحة جدا ، يرى فيها سحر الجمال وآية النعمة والثراء ، ويمضى فى طريقه منحدرا الى النهر واذا جارية ثالثة ليست اقل من صاحبتيها فتونا واغراء ولكن فيها استعلاء وتكبرا وشيئا من غلظة لو كان فى رجل لبغضه الناس . ولكنه يدعو اليها اشد الدعاء ، ويرغب فيها اعظم الترغيب . ولا يكاديراها حتى يجن بها جنونه . واذا هو يحاول ان يدنو منها فيجثو بين يديها ، ولير فع اليها الطاعة والعبادة ، كما تقدم الطاعة والعبادة الى الاصنام . ولكنها تنأى عنه مسرعة ، وتأبى حتى ان تقول له مثل ماقالت صاحبتاها من قبل . انما تشير اليه اشارة فيها كثير من الكبرياء ان قف ، فلم يؤذن لنا بعد فى ان نلتقى .

وقد اخذ الفتى ينكر هذا الحلم العجيب وهو مغرق فيه لم يفق منه . وكاد انكاره لهذا الحلم ان يرده الى اليقظة ، لولا ان صورة تتراءى له فيثوب اليها ، واذا جارية رابعة ليست اقل من صاحباتها دعاء للقلب ، واستهواء للنفس لولا انها لاتنظر الا شذرا ، ولولا ان كل مايظهر على وجهها من هذه الآيات التى تصور دخيلة النفس ، واعماق الضمير ، لايدل الا على الغلظة والغطرسة وسوء الخلق . وهى مع ذلك تفتن كل الفتون وتملأ قلبه هياما وشوقا وهو يريد ان يستعطفها ، ولكنها عنه مسرعة وهى تشير فى اباء وجفاء ، ان قف فلم يؤذن لنا بعد فى ان نلتقى .

وقد أحس الفتى حسرة مؤذية ولوعة حرقت قلبه تحريقا وجعل يتحدث الى نفسه فى هذا الحلم الغريب لانه شقى بائس قد كتب عليه الحرمان فى حياته اليقظة وفى حياته النائمة . ومن يدرى لعل الحرمان ان يكون قد كتب عليه فى حياته الدنيا وفى حياته الآخرة . واذن ففيم خلق ؟ ولم قذفت به الاقدار فى هذا العالم البغيض الذى لاتحلو فيه يقظة ولا نوم . ولكنه

يرى امراة نصفا ليست بالجميلة الرائعة ، ولا الذميمة التى تنصرف عنها الابصار . ولكنها شيء بين ذلك . فى وجهها الحازم مايدعو الى الحب وفيه مايحمل على الاكبار وفيه اشراق غريب يشيع فى القلب رقة وفى النفس عطفا وميلا الى الحنان . وهذه المراة قائمة مكانها لاتتحول عنه ولاتظهر ميلا الى التحول عنه وقد اخذ الفتى يدنو منها شيئا ، فلم تنفر منه ولم تغب عنه ، وانما اقامت مكانها هادئة يفيض من وجهها هذا البشر الحازم ، وهذا الحنان الذى يملأ القلب طمأنينة ورضى ، وهى تشير الى الفتى فى ظرف وعطف ان اقبل ، كأنها شهدت مالقى من اولئك الجوارى الاربع فرقت له ، واشفقت عليه ، واحبت ان تسليه وتواسيه . ولكن الفتى يعرض عنها اعراضا ، ويصد عنها صدودا ، ويوليها ظهره وهو يقول : هيهات لن يكون بيننا لقاء ، فلست احب العطف ولا اريد الرفق ، وليس ابغض الى من هذا الامل الذى لا اجد فى تحقيقه الجهد المجهد ، ولا فى الظفر به العناء الثقيل

وكان اعراضه هذا قد ملأ قلبه غيظا فرده الى اليقظة على ابغض ماكان يجب ان يستيقظ عليه من الحال . على هذا الأمل القريب الذى لارغبة له فيه ، ولاحاجة به اليه ، بعد ان افلتت منه هذه الآمال العسيرة التى كان عليها حريصا وبها كلفا ، وقد انفق نهاره مفكرا فى هذا الحلم الغريب ، مستحضرا هذه الصور الجميلة التى تراءت له ثم نأت عنه ، منكرا حظه من النوم واليقظة جميعا .

ويقبل ابوه مع المساء فاذا رآه فى هذا الذهول ، لامه اشد اللوم وعنفه وانبه اعظم التانيب ، وحثه على ان يترك حياة الادب هذه ، التى ترقى باصحابها الى السحاب ، ثم لاتبلغهم من آمالهم شيئا . ورغبة فى ان يسير سيرة اسرته فيعمل فى التجارة المريحة التى لاتضيع على صاحبها وقتا ولا جهدا ولا تفكيرا

ولكن الفتى يمتنع عن ابيه اشد الامتناع ويظهر له الزهد في التجارة والازدراء لحياة التجار، ثم ينفق ليلة ساهرة لا يذوق فيها النوم ، ولا يصاحب فيها الا القلم والقرطاس ، حتى اشرقت الارض بنور ربها ، وفرغت بغداد من مواكب الامراء والوزراء ، والكتاب الذين استقروا في دواوينهم حين ارتفع الضحى . اقبل الفتى يسعى الى ديوان الحسن بن سهل الوزير . فما زال يتلطف حتى ادخل عليه ، فانشده مدحة اعجبته ، وانصرف عنه بجائزة ارضته ، وراح على ابيه آخر النهار بعشرة آلاف درهم نثرها بين يديه . قال الشيخ مبهورا مسحورا : لا الومك بعد اليوم ، في ازدراء التجارة والاقبال على حياة الادباء

ومنذ ذلك اليوم اتصلت اسباب الفتى محمد بن عبدالملك الزيات باسباب الوزراء والكتاب، وما زال يرقى من درجة الى درجة ، ويسمو من منزلة الى منزلة ، حتى نظر ذات يوم ، فاذا هو قد فوض الخليفة اليه امور الدولة كلها . فله الامر والنهى واليه المنح والمنع ، وفي يده سلطان السيف والقلم جميعا ، واذا ثروته لا تحصى ولا يقاس اليها الا ثروة امير المؤمنين ، ومن يدري لعله ان يكون اقدر على ابتذال المال والتصرف فيه من امير المؤمنين . فهو يأمر وينهى في المال غير مراجع ولا مدافع . وامير المؤمنين لا يعطي ولا يمنع الا عن رايه ومشورته .

وقد فرغ من غدائه ذات يوم وآوى الى مضجعه يلتمس شيئا من راحة ، فيغفى اغفاءة قصيرة ، واذا هو يرى نفسه في تلك الجنة الفسيحة ذات الارجاء البعيدة . وجارية حسناء ترمقه من بعيد وهو يدنو منها ، محبا لها ، معجبا بها ، حتى اذا استطاع ان ينظر في وجهها من قريب ، لم ينكر هذه الصورة ، وانما ذكر كان عهده بها كان قريبا ! فهي اذن تلك الفتاة الحسناء التي رآها في حلمه ذاك ، والتي كانت تظهر عليها آيات الغنى والسعة ،

وهى تبسم له وتدنومنه ، وتقول له فى صوتها العذب ولفظها الحلو : ادن ابا جعفر فقد اذن لنا الآن ان نلتقى . قال ابو جعفر : جعلت فداك من تكونين . قالت فى صوتها العذب ولفظها الحلو : انا الثروة

وافاق ابو جعفر باسم الثغر ، راضى النفس ، يعجب من حلمه القديم ، وحلمه الجديد . ولكنه كان صاحب جد وحزم وفلسفة فلم يلبث ان هز راسه وتلا قول الله عز وجل : قالوا اضغاث احلام وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين » ومضى ابو جعفر يصرف امور الدولة كما يهوى ، وعلى مايحب امير المؤمنين ، لايسال عن العدل اين هو ! ولا يسال عن الظلم اين هو ! وانما يسال عن رضى نفسه ورضى امين المؤمنين . يسلك اليهما الطرق المستقيمة والمعوجة ويركب اليهما الحزن والسهل ويضحى فى سبيلهما بالماضى والمستقبل فيجفو الصديق ويلقاهم بالغلظة حينا والازدراء حينا آخر لايعرف لهم ودا ولا يرعى لهم عهدا حتى يقول له صديقه القديم ابراهيم ابن العباس الصولى

وكنت اذم اليك الزمان ... فاصبحت منك اذم الزمانا
وكنت اعد لك النائبات ... فها انا اطلب منك الامانا

ثم يغلو فى الاستعلاء ، ويمعن فى الكبرياء حتى يلقى اخا امير المؤمنين اشنع لقاء . ويتعمد ايذاءه فى نفسه وجسمه بمحضر من اهل الديوان لان امير المؤمنين كان مغاضبا لاخيه

وفى مساء ذلك اليوم خلا الى ندمائه فاخذ من لهوه المادى والعقلى بحظ عظيم ، وثقل عليه الشراب حين تقدم الليل ، فاغفى اغفاءة قصيرة ثم افاق ، وهو يتلو قول الله عز وجل : « قالوا اضغاث احلام وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين » فلما ساله بعض ندمائه عن ذلك قال رؤيا رايتها فى هذه الاغفاءة وما ارى الا انها من اثر الشراب

ولم تكن الرؤيا من اثر الشراب ، وانما كن حلما يعبر حلما ، فقد

رأى نفسه فى جنته تلك ، ورأى تلك الجارية الابية المتغطرسة تبسم له وتسعى اليه ، وهى تقول : أدن أبا جعفر فقد أذن لنا الآن فى أن نصطحب . الا تذكرنى ؟ لقد التقينا ذات مساء فى جنتنا هذه على شاطىء نهرنا هذا ، وقد كنت تريد أن تستعطفنى . قال أبو جعفر : نفسى فداؤك من تكونين ؟ قالت : أنا الجفوة قد اجبتك منذ اليوم فأنا صفاء لك وجفاء لاعدائك . وما أرى الا أن الناس جميعا عدو لك

ومضى أبو جعفر يستزيد من السلطان ويستزيد من الثراء ويستزيد من الكبرياء والباس حتى بلغ من العنف مالم يبلغه وزير قبله . وسام المسلمين من ألوان العذاب مالم يكن المسلمون يظنون أن من الممكن أن يساق اليهم . واتخذ تنوره ذاك الذى كان يستصفى به الاموال من العمال ، وكان ضيقا شديد الضيق قد أحيطت أنحاؤه كلها بالمسامير ذات الحدود المرهفة ، يدخل فيها الرجل من الناس فتأخذ المسامير جسمه من جميع أقطاره وقد جرب أداته تلك فى أحد العمال ذات يوم وجعل ينظر الى هذا العذاب ويجد فيه متاعا وراحة ورضى . فلما ذكرت له الرحمة قال : انما الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة وما رحمت شيئا قط .

وفى مساء هذا اليوم رأى فيما يرى النائم احدى جواريه أولئك فى جنته تلك ، تسعى اليه باسمة ابتساما مرا وهى تقول اقبل أبا جعفر الا تعرفنى ؟ أنا صديقتك القسوة لقد التقينا ذات اصيل فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . فقد آن لنا الآن ان نلتقى ولن يفرق بيننا الا الموت .

واصبح أبو جعفر ضيقا بهذه الاحلام التى يعبر بعضها بعضا وحدث نفسه بأن يسأل فى ذلك بعض اصحاب الفلسفة لعلهم يجدون لهذا النحو من حياة الناس تفسيرا . ولكنه استكبر حتى عن السؤال وخشى أن تحدث الى الكندى الفيلسوف

فى ذلك أن يزدريه ، ويستخف حلمه ، ويتندر بقصته عند أمير المؤمنين . فلم يتحدث بشيء من أمره الى أحد . وانما تلا قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين »

ومضى أبو جعفر يصرف أمور الدولة كما يشتهى هو لا كما تشتهى أمور الدولة ، حتى ملأ الارض رعبا ورهبا ، وحتى كان الخوف قوام الصلة بينه وبين القريب والبعيد

وقد توفى أمير المؤمنين وانتقلت الخلافة الى اخيه ولكن ابا جعفر مطمئن القلب رضى البال . قد امتلأت نفسه ثقة بنفسه ، وامن المكروه كل المكروه . فهو مستيقن ان قصور الخلفاء لم تعرف قط وزيرا يشبهه قوة وايداء وحسن تصريف للامور ، فلن يستغنى عنه أمير المؤمنين . ولكنه يصبح ذات يوم وقد وجد الشك اليسير الخفى الى قلبه العنيف الابى سبيلا . لانه راى فيما يرى النائم جارية من جواريه تلك تبسم له ابتسامة حزينة ، وتنأى عنه رويدا رويدا . وهى تقول فى صوت تكاد تخنقه العبرات : وداعا ابا جعفر ، لقد حمدت صحبتى لك ، ومعاشرتى اياك ، ولكن قضى علينا ان نفترق . قال أبو جعفر : ويحك من تكونين ؟ قالت انا صديقتك السطوة ، اتنسى يوم التقينا فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . وقد افاق أبو جعفر فى ذلك اليوم مضطرب النفس بعض الشيء . وهم أن يتلو الآية الكريمة فلا ينطلق بها لسانه وانما الح الشك على نفسه الحاحا

ولم يات أصيل ذلك اليوم حتى كان ابو جعفر فى سجن امير المؤمنين المتوكل . قد جرد من سطوته وجفوته ، وثروته وقسوته . ورد الى حال الشقى البائس الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، والذى يدعو فلا يستجاب له ويتمنى فلا يحفل احد بتمنيه . ويشكو فلا يرق احد لشكاته

وقد صبر ابو جعفر على السجن ماكان السجن سهلا يسيرا ، ولكنه لم يلبث ان استحال الى العذاب يصب عليه فى الليل وقد وكل السلطان به من يسامره . حتى اذا احس منه راحة او شيئا يشبه الراحة نخسه بالمسلات ليرده الى الالم وليجدد عهده بطعم العذاب . وقد صبر ابو جعفر على هذا العذاب ماواتته قوته ، واحتملت طبيعته شدة البأس ، ولكنه يرى ذات يوم على باب الحجرة التى يعذب فيها من حجرات السجن صورة يعرفها ولا ينكرها ، يراها يقظان وقد كان يرى صاحباتها نائما . وهو ينظر فى وجهها نظرة المشوق اليها المفتون بها ، وكلما زاد اليها نظرا ، ازداد اليها شوقا وبها كلفا . وهو يدعو بقلبه كله ونفسه كلها ، وهى تريد ان تستجيب له وتود لو تخطو هذه الخطوات القليلة التى تدنيها منه وتقربها اليه ، ولكنها ترد عن ذلك ردا رقيقا فترسل الى ابى جعفر نظرات حلوة فيها حنان وعطف واشفاق . واذا لسان ابى جعفر ينطلق بهذه الكلمة فى صوت هادىء يقطعه الالم ، الرحمة . قال الذين يعذبونه وقد ظنوا انه يسترحمهم . انما الرحمة خور فى الطبيعة ، وضعف فى المنة ، وهل رحمت شيئا قط ؟ ولم يطلب ابو جعفر اليهم رحمة وانما عرف صاحبته تلك التى رآها فى جنته تلك على شاطىء دجلة فسماها باسمها

ومنذ ذلك اليوم لم ينطق ابو جعفر الا بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله حتى حين ادخل فى التنور الذى كان يعذب به الناس لم ينطق لسانه بغير هذه الكلمة حتى مات

ضمير حائر

آوى الى سريره راضيا ناعم البال ، وهب من سريره موفورا طيب النفس ، ونام بين ذلك نوما هادئا هانئا لم تنغصه مروعات الاحلام . ولم يكد يخرج من غرفته حتى تلقاه الصبية من بنيه وبناته بوجوه مشرقة تتالق فيها نضرة النعيم ، وثغور جميلة تبسم عن مثل اللؤلؤ المنضود ، وحملت اليه اصواتهم الرخصة العذبة تحية الصباح فردها عليهم فى صوت حلو يجرى فيه الحزم الصارم ويشيع فيه الحنان الرقيق ، وانفق معهم ساعة حلوة يداعب هذه ويلاعب ذاك ، ثم خلص منهم بعد جهد وفرغ نفسه ليصلح من شانه قبل ان يغدو الى عمله ، وكان عمله خطيرا ، وكان اهتمامه لهذا العمل وعنايته به اعظم منه خطرا ، لانه كان قوى الضمير حريصا اشد الحرص على اداء الواجب كاملا ، وكان ابغض شىء اليه ان يتهمه احد او ان يتهم هو نفسه بأيسر التقصير

ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله اقل من عنايته بالعمل والواجب ، فقد استقر فى نفسه منذ بلغ الشباب ان من كمال المروءة ان يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة ماوسعه ذلك ، وان تقع عليه العين فلا تقتحمه وتبلغه الابصار

فلا تزور عنه ولا تعدوه الى سواه . ذلك ادنى ان يحببه الى النفوس ويحسن مكانه فى القلوب، ويجعل محضره خفيفا وعشرته شيئا يطلب ويرغب فيه

وكان الله قد منح صاحبنا حظا من جمال الخلقة وخلقه فى تقويم حسن فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماما بمنظره وشجعه الناس على ذلك بما كانوا يهدون اليه من ثناء ، وشجعه النساء خاصة على ذلك بما كن يحمدن من صورته الرائعة وزيه الانيق وحسن تلطفه فى اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشارته اكثر مما تعود الناس ان يصنعوا فكان يخلو فى غرفته كل صباح ، وكان يخلو فى غرفته كل مساء وقتا غير قصير ، ثم يخرج من غرفته ليغدو الى عمله او ليروح الى ناديه . فلا يكاد اهله يرونه حتى يحدث منظره الرائع فى نفوسهم فجاءة جديدة على كثرة معاشرتهم له ومخالطتهم اياه .

وقد خلا فى ذلك الصباح الى نفسه فى غرفته فاطال الخلوة وغير وبدل من زيه ما استطاع لتغيير والتبديل ، حتى اذا اعد نفسه للناس او اعتقد انه اعد نفسه للناس ، وهم ان يخرج القى الى المرآة هذه النظرة السريعة لخاطفة ، التى كان يلقيها اليها دائما كانما يسالها رايها الاخير قبل ان يخرج للقاء الناس . وكان رايها الاخير دائما حسنا مقنعا يشيع فى نفسه شيئا من الرضى الهادىء والثقة المنتظرة . ولكن راى المرآة الاخير فى ذلك الصباح لم يكن حسنا ولا مقنعا ولا مشبعا للرضى والثقة وانما كان مزعجا مروعا . فلم تكد عينه تبلغ المرآة حتى ارتدت عنها مذعورة ثم عادت اليها مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت الى قلبه ذعرا يبلغ الهلع واذا هو يرتد عن مكانه ويرجع ادراجه مسرعا ويصرف وجهه عن المرآة تحويلا تاما حتى لا تخطىء عينه فتمتد

اليها مرة اخرى . وقد اخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا سريعا متصلا ، واخذت جبهته تنضح بشيء من عرق بارد ، واخذت قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه وجعل الدوار يعبث به وبكل شيء من حوله حتى خيل اليه ان الغرفة كلها قد استدارت فاصبحت المرآة وراءه واصبحت هذه المائدة التي كان يجلس اليها ليصلح من شأنه امامه . واذا هو مضطر الى ان يتماسك ويتمالك ، واذا هو عاجز عن ذلك فيجلس على اول كرسي يبلغه مضطربا ممعنا في الاضطراب حائرا لا يكاد يتبين حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها ، ومع ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيرا جدا غريبا جدا في وقت واحد . كان يسيرا لانه لم يكن الا ما رأى في المرآة وكان غريبا لانه لم يرفي المرآة وجهه وانما رأى اقبح وجه يمكن ان يكون الله قد خلقه ، وابشع منظر يمكن ان يمتحن الله به الناس او القرود . وقد طال جلوسه على كرسيه واطراقه الى الارض واغراقه في الحيرة ، ثم اخذ جسمه يهدأ شيئا فشيئا وجعل قلبه يستقر في صدره قليلا قليلا وامتدت يده فاترة الى منديل امره على وجهه فجفف به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هادئة فيها شيء من غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه اليه وجعل يسخر من هذا الروع الذي الم به فاكبر الظن ان شيئا من علة قد الم بمعدته فافسد عليه مزاجه شيئا ما ، ثم انشأ يسأل نفسه عما طعم امس وعما شرب فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه شيئا فقد طعم امس وشرب كما كان يطعم ويشرب في كل يوم ، ولكن بمعدته شيئا من غير شك ، هو الذي خيل اليه ماخيل حين مد عينه الى المرآة . ومن المحقق انه لم يكن يحس الما ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين يطرأ عليهم المرض . ولكن لا سبيل الى تعليل هذه الظاهرة الطارئة الا بشيء اصاب معدته او كبده ، وهو على كل حال قد استرد شيئا من طمأنينته فعاد الى

شأنه يصلح منه ما افسد هذا الاضطراب . فلما بلغ من ذلك ما ارضاه ازمع ان يخرج من غرفته دون ان يسأل هذه المرآة المشئومة عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس . القى فى روعه مع كثير من اللباقة والمكر ، أن من الحق عليه ان يسأل هذه المرآة التى تعود ان يسألها دائما ، والتى تعودت ان تصدقه دائما ، فمن يدرى لعل شيئا الم به فغير من وجهه وشكله وهو لايدرى وماينبغى ان يظهر الناس منه على مالايحب ان يظهروا عليه ، وقد القى نظرته الى المرآة فارتدت عينه مذعورة ، ثم عادت الى المرآة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حملت الى قلبه جزعا وهلعا واذا هو يجاهد ليحبس صيحة قد همت ان تخرج من حلقه فتملأ الغرفة من حوله ، وتدعو اليه اهل الدار ، ولكنه رد هذه الصيحة الى مستقرها ولم يتح لها ان تنفجر واستأنف اضطرابه ذاك . ثم ثابت اليه نفسه بعد لأى فيسرع الى الجرس يدقه فاذا دخلت عليه الخادم رفع اليها وجهه وظل صامتا حينا يريد ان يعرف أتنكر الخادم من امره شيئا . فلما راى الخادم كدابها كلما دعاها اليه قائمة واجمة تنتظر امره لاتنكر شيئا ولاتعرف شيئا ولا تظهر معرفة ولاانكارا قال لها فى صوت هادىء يكاد يضطرب : انبئى سيدتك انى انتظرها واقبلت زوجه بعد حين فرانه قائما باسما ينتظر مقدمها فلما رانه اخذها منظره كما تعود ان ياخذها كل صباح وكل مساء ، وسالها هو انكرين من امرى شيئا ؟ قالت متضاحكة . وماذا تريد ان انكر من امرك ! انما انت كما تعودت دائما ان اراك رائع الشكل جميل المنظر خلابا للنساء . الى اين تريدان تغدو اليوم فانى اراك تكلفت عناية بزيك فلما تتكلفها ؟ قال والى اين اغدو الا الى عملى . قالت فان عملك لايحتاج الى كل هذا التانق . ولكنه اعاد عليها قوله : انى الحق انك لاتنكرين حتى شيئا ؟ قالت

مغرقة فى الضحك . فى الحق انى انكر منك هذا الاسراف فى التجمل . قال فى شىء يشبه الذهول : ان هذه المرآة تنبئنى بغير ماتقولين . ثم القى على المرآة نظرته الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مذعورا يقول لامرأته التمسى لى طبيبا

وقد عاده طبيب وطبيب وطبيب ، عادوه متفرقين وعادوه مجتمعين وفحصوا من جسمه كل مايمكن ان يفحصوا وامتحنوا كل مايمكن ان يمتحنوا ، فلم يروا به باسا ولم يشخصوا له علة ولم يصفوا له دواء . وقيل له قائلهم : مانرى بجسمك من باس ، فالتمس دواء نفسك عند نفسك فما نظن الا أن فى ضميرك شيئا يؤذيك على علم منك أو على غير علم ، وقد غيرت المرآة فى غرفته مرة ومرة ولكن المرايا كلها جعلت كلما التمس نفسه فيها ردت اليه صورة غير صورته وشكلا غير شكله ، وملأت قلبه فرقا وروعا ، قد تسامع أعوانه واصحابه بانه مريض منذ لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون اليه ليعودوه يلقاه أقلهم ويرد عنه اكثرهم وينبىء* اولئك وهؤلاء من امره بغير الحق ، تخترع لهم العلل ، وتبتكر لهم الادواء فيصدق منهم من يصدق ويكذب منهم من يكذب ويشك منهم من يشك . وكنت من هؤلاء الاصدقاء الذين سعوا اليه وسألوا عنه ثم اتيح لهم ان يروه . وكنت أثيرا عنده كما كان اثيرا عندى لاأخفى عليه من ذات نفسى شيئا كما لايخفى على من ذات نفسه شيئا . ولقد لقيته فيمن لقيه من أصحابه ذات يوم فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه اخماسا لاسداس فى أمر علته . نصدق نحن فى حيرتنا ويتكلف هو لنا الحيرة تكلفا لايكاد يخفى على فلما هممنا ان ننصرف استبقانى فى لباقة وظرف فبقيت ومضى الحديث بيننا الوانا ساعة من نهار ثم عدنا الى علته فاذا هو يتحدث الى بأمره كله فى وضوح وجلاء

قلت ضاحكا : العلك قرات هذه القصة الانجليزية التى كتبها أوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جرى ، فان فيها مايشبه

قصتك من بعض الوجوه . قال: فانك تعلم انى لا أقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة اوربية ولا اعرف ان هذه القصة قد نقلت الى العربية. قلت : أولم يتحدث اليك قط متحدث عن هذا الكتاب وكاتبه . قال: سمعت اطرافا من الحديث عن اوسكار ويلد ، ولكن لم اسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلا ولا كثيرا فحدثنى انت عن هـذا الـكتاب قلت :لقد قرأته منذ زمن بعيد واذكر انه يعرض على قرائه قصـه فتى حسن رائع الحسن، جميل بارع الجمال، اتخذ له صديق مصور، صورة تطابق شكله جمالا وروعة، وقد اقترف هذا الفتى فى مستقبل ايامه سيئات كثيرة، واجترح اثاما مختلفة، فبغضت اليه نفسه اشد البغض، وقبحت صورته المصنوعة فى عينه اشنع التقبيح، فنفاها من حجرات داره وغـرفاته الى حيث ينفى سقط المتاع . ولكنه كان يلم بها من حين الى حين تزيدا من بغضه لها وسخطه عليها واستعذابا لهذا السخط وذلك البغض . ثم اصبح الناس ذات يوم فراوه مقتولا الى جانب صورته ، أراد ان يمزق الصورة فمزق صدره . وقد اراد اوسكار ويلد فيما أظن ان يصور باثم الندم على مايقترف من الآثام فى بعض الضمائر والنفوس: فلم تكن هذه الا مرآة لضمير دوريان جرى . رأى فيها ما كان يملأ ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة

قال صاحبى فى صـوت يأتى من بعيد : وما أنا وهذه القصة . قلت فى صوت يأتى من بعيد ايضا : خشيت ان تكون قد قرأتها او سمعت عنها فأثرت فى اعصابك تأثيرا سيئا ، فما اكثر ماتؤثر الكتب قيمها وسخيفها فى اعصاب الناس، فتحملهم على غير ماأراد المؤلفون ان يحملوهم عليه . قال صاحبى وعلى ثغره ابتسامة حزينة هون عليك ، فانى لم اقرأ هذا الكتاب ، ولم اسمع عنه ، ولم اتأثر به قليلا ولا كثيرا ومع ذلك فان من حقه أن يثيرا ، قلت : وقد ندمت بعد ذلك على ماقلت ـ فالتمس فى اثناء نفسك واحناء قلبك خطأ لعلك

قد دفعت اليه او مساءة لعلك قدقدمتها الى برى. . فانى أعلم انا نجهل من أمر الضمير الانسانى اكثرمما نعلم، ومن يدرى لعل فى ضميرك الخفى ندما على شىءاتيته ثم انسيته ولعلك ان استكشفته ان تصلحه وتستغفر الله منه فتقل هذا الندم الذى أخشى أن يكون هو الذى ينغص عليك الحياة . وتركت صاحبى حائرا مبهوتا ثم انبئت بعد أيام انه يمرض فى بعض المستشفيات . فلما سألت عن جلية ذلك قص على محدثى عجبا من الامر . فقد كان صديقى هذا البائس من قوم كرام مات اكثرهم وبقى اقلهم . وكان الذين ماتوا - رحمهم الله - يرتفعون عن الصغائر ويمتنعون على الدنيات وتابى نفوسهم فيما تأبى جحود العارف ، وانكار الجميل . ورثوا ذلك عن ابائهم واحبوا ان يورثوه أبناءهم فحال بينهم وبين ذلك هذا التطور الحديث الذى غير مقاييس الاشياء ، وادار اعمال الناس واقوالهم على المنافع العاجلة والمآرب القريبة لاعلى ماكان يالف اولئك من رعاية الحق وتقدير المعروف ، وكان صديقى هذا البائس احرص الناس على ان يشبه الذين سبقوه من قومه فى كل ماكانوا يأتون ويدعون من الامر ، ولكن احداث الدهر ، وخطوب الايام وما تحمل من رغبة ورهبة ومن اغراء وتنفير كانت اقوى من خلقه وارادته فلم يستطع ان يكون خليقا بالذين سبقوه من قومه . وانما كان خليقا بالذين عاصروه من اترابه كان قومه يستحيون من انفسهم قبل ان يستحيوا من الناس وكان هو يستخفى من الناس ولا يستخفى من ضميره ، ولا من الله وهما معه اينما كان . فلما قصصت عليه قصة اوسكار ويلد كنت كانما كشفت عن نفسه الغطاء فاصبح يتحدث الى امراته والى خاصته بان هذا الوجه القبيح الذى كان يراه فى المرآة لم يكن وجهه ، فوجهه ما زال جميلا رائعا وانما هو مرآة ضميره لان ضميره بشع دميم

ثم يمضى فى حديثه فيقـــول : لا تنكروا مما اقول لكم شيئا فانى لا ارى هذا الوجه البشـــع اذا نظرت فى المرآة فحسب بل انا اراه كلما خلوت الى نفسى . اراه يحمـــله جسم كجسمى واراه يجلس الى غير بعيد ، ينظر الى شذرا اول الامر ثم لا يزال يرفق بى ويظهر الرقة لى حتى اطمئن اليه فيحدثنى فى صوت هادىء رقيق عن سيئات تقدمت بها الى الناس فيما مضى من الدهـــر ثم يقول لى فى صوت هادىء يخيفنى اشد الخوف ليتك لم تفعل . فقد كنت ارانى جميلا فجعلتنى قبيحا شنعا ، وكنت ارانى ســـعيدا فجعلتنى شقيا بائسا فقد احتملت وحدى قبحى وبشاعتى وشقائى وبؤسى ، ثم اعيانى احتمال هذا الثقـــل فرايت ان تشاركنى فى النهوض به فسالزمك منـــذ الان كما يلزم الظل صاحبه ، واى غرابة فى ان يلزم الضمير صاحبه ، وكان صديقى البائس يقول ذلك لاهله وخاصته فى صوت غريب يمـــلأ قلوبهم خوفا واشفاقا ورحمـــة وعطفا ، ثم كان يلح عليهم فى الايخلوا بينه وبين نفســـه فلزموه واطالوا البقاء معه ولكن بغضـــه لظله هذا . اولضميره هذا جعل يعظم ويشتد كمـــا ان حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشـــتد ايضا ، فقد راى ضميره فى المرآة اول الامر ثم جعل يراه فى الخلوة بعد ذلك ثم اصبح يراه حـــين يخلو الى نفسه وحين يحبط به اهله وخاصته واذا امره ينتهى به الى الجنون الثائر او الى ما يشـــبه واذا اهله مضطرون الى ان يمرضوه فى بعض المستشفيات التى تعالج فيها الاعصاب المريضة

ليتنى لم اكشف لصـــاحبى عن نفسه الغطاء ، استغفر الله ماذا اقول . وهل يزيد الكتاب على ان يكشفوا للناس عن نفوسهم لغطاء

٥

مدرسة الذبابة

اضحكى ياسيدتى واغرقى فى الضحك ، فذلك شىء يسرنى ويرضينى ، لان الضحك خير من البكاء ، ولان النشاط خير من الفتور . ولان ذلك بعد لايغض من هذا التشبيه الذى تضحكين منه ولا يرده الى الضعف فضلا عن ان يرده الى الفساد . فانت تخدعين نفسك بهذا التناقض الذى ينخدع به اصحاب السذاجة ، ترين الذبابة كائنا يسيرا ضئيلا لايكاد يشغل من الجو اذا استقل فى الجو حيزا ذا خطرا ، ولا يكاد يشغل من الجسم ان وقع على الجسم الامكانا لايكاد يذكر ، وترين صاحبنا ضخما فخما ، طويلا عريضا ، يسعى فيسبقه بطنه ، كأنما يفسح له الطريق ، وهو على ذلك او من اجل ذلك يمشى ثقيلا بطيئا ، كأنما يبذل اشق الجهد واعنفه فى كل خطوة يخطوها من خطواته هذه القصار التى لاتكاد تقدمه اذا سعى الا فى كثير من العناء . فاذا اراد ان يجلس التمس هو او التمس الناس له مايلائم جسمه الضخم الفخم من الكراسى العراض التى تستطيع ان تحتمل الاثقال دون ان تنحل او تنهار . فاذا تكلم ارتج من حوله كل شىء واحتاج الناس الى ان يرغبوا اليه فى ان يغض من صوته ويخافت بحديثه اشفاقا على الاسماع ان تستك ، وعلى الاسنان ان تصطك ، وعلى

القلوب ان تنخلع ، وعلى الرؤوس ان يأخذها الدوار ، ولكن مع ذلك اشبه هذا الكائن الهائل المخيف بذلك الكائن الضئيل الخفيف .
واى غرابة فى هذا فانى لم اشبه جسما بجسم ولا شكلا بشكل وانما شبهت خلقا بخلق ومزاجا بمزاج

والله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهو قادر ان شاء على ان يركب فى الناس اخلاق الذباب ويركب فى الذباب اخلاق الناس ، ومن يدرى لعلنا لو فهمنا طنين الذباب واستطعنا ان نترجم مايدور بين افراده وجماعاته من الحديث ، ان يتاح لنا ان نتبين ان الله قد ركب فى الذباب اخلاق بعض الافراد والجماعات من الناس . ولكنا لم نعلم منطق الذباب ولم يتح لنا ان نفهم لغته ولا ان نستقصى مايدور بين افراده من الاحاديث ولا مايكون بين جماعاته من الخطوب ، فاما الانسان فقد اتيح لنا ان نفهم لغته ونبلو اخباره ونستقصى انباءه ، واتيح لنا من اجل ذلك ان نتبين بعض مافيه من الخصال التى تقربه من كبار الحيوان حينا ومن صغاره حينا آخر .

والذى استطيع ان احققه هو ان صاحبى هذا الفخم الضخم الطويل العريض قد فطر على شىء من اخلاق الذباب . واظهر ما ركب فيه من ذلك ، هذا التهالك الملح الذى يمنعه ان يعيش بنفسه ، وان يعيش لنفسه ، وان يستقل بشخصه لحظة من لحظات الحياة ، فهو دائما تابع لشىء او تابع لانسان ، وهو دائما ملح فى التتبع للاشياء وللناس ، وهو يحيا من هذا التتبع ولا يستطيع ان يحيا بدونه ، وهو من اجل هذا مدفوع اليه بالغريزة القاهرة التى لايدبرها عقل ولا تصرفها ارادة وانما هى مندفعة امامها لاتردها الاحداث ولا تصدها الخطوب

وهنا يظهر الفرق الواضح بين صاحبنا وبين الذباب فليس للذباب مايحميه منا ان اردنا ان نرده او نصده او نخلص منه ،

بل كل شيء يغريه بذلك ويحثناعليه . ولكن صاحبنا قد وجد من الحياة الاجتماعية ومن نظم الحضارة وقوانينها ومن الشرائع المنزلة والشرائع المتكلفة مايوفر له الحماية كل الحماية، ويبيح له ان يكلف الناس من امرهم شططاوان يعذبهم عذابا أليما . فهم لايستطيعون ان يصدوه فى رفق دون ان يخرجوا على قوانين العرف المألوف والادب الموروث، وهم لايستطيعون ان يصدوه فى عنف دون ان يخرجوا على النظم والقوانين التى لايستبيح الرجل المتحضران يخرج عليها ، والتى لاتسمح لمتحضر او غير متحضر بالخروج عليها

فنحن مضطرون الى ان نحتمله طائعين او كارهين والى ان نشقى به راضين بذلك او ساخطين عليه . وهو يعلم ذلك حق العلم ويشعر بذلك اقوى الشعور فيستغل ذلك ابشع الاستغلال وينتفع به اقبح الانتفاع وينمى فى نفسه اخلاق الذباب ماوجد الى تنميتها سبيلا . ولو اتيح لك ياسيدتى ان تجربى معاملة الذباب على نحو مانعامل صاحبنا لرايت الذباب يضخم ويعظم ويثقل، ويلح ويسرف فى الالحاح ، ويستغل ما يسر له من الاسباب حتى يبلغ من ضخامة الجسم وفخامته ومن ارتفاع الطنين واتساعه مايملأ الحياة هولاوروعا . ولكن الذباب لايجد مايحميه كما يجد صاحبنا وامثاله مايحميهم . فهم يسعدون بشقائنا وينعمون ببأسائنا ويحققون من الآمال والمآرب مالا يستطيع الذباب المسكين ان يحقق . وانظرى ياسيدتى لقد انتهى بى الامر الى ان ارحم الذباب واشفق عليه وارثى له حين اوازن بينه وبين هذا الذباب الناطق ، لانه لا يبلغ من حياته البائسة التعسة مثل مايبلغ الذباب الناطق من حياته السعيدة الناعمة

ولم يكن صاحبنا هذا دائما ضخما فخماكما ترينه الآن، وانما كان نحيلا ضئيلا لايكاد يملأ العين، وكان خفيف الحركة شديد النشاط لايكاد يستقر فى مكان ،ولا يخيل الى من رآه ساعيا

مضطربا انه يمشى على الارض وانما يخيل اليه انه يمشى فى الهواء . وقد ظهرت فيه اخلاق الذباب هذه منذ طفولته الاولى فى المدرسة . فلم يكن كغيره من رفاقه يكتفى بهذه الحياة الاجتماعية الحلوة التى يحياها التلاميذ فيلعب مع أترابه حين يلعبون ويفرغ معهم للدرس حين يفرغون للدرس ويستمع معهم للاساتذة حين يستمعون للاساتذة ، انما كان متهالكا على أترابه واساتذته ماوجد الى هذا التهالك سبيلا ، فان اعياه ذلك تهالك على خدم المدرسة والموظفين الذين يعملون فيها . وقد حسن الظن به اول الامر فقرر الذين كانوا يعيشون من حوله انه عطوف الوف يتودد الى امثاله من الناس سواء اوافقوه فى السن أم خالفوه فيها ، ولكنهم لم يلبثوا ان ضاقوا بهذا العطف واستثقلوا هذا الالف ، وجعلوا يتدافعونه ويلقى بعضهم حمله على بعض ، ثم جعلوا يفرون منه جماعات وأفرادا ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يدفعوه ولم تغن عنهم محاولة الفرار منه شيئا . فهو لم يكن ذبابا غافلا وانما كان ذبابا عاقلا ، والعقل يفتق الحيلة ويحسن التماس الوسائل ويمكن صاحبه من التلطف وحسن التأتى للعسير من الامر . وقد عرف صاحبنا كيف يحتال وكيف يتقى الوسيلة الى الاتراب والى الاساتذة ، واذا هم يشقون به ويصبرون على احتماله ويبذلون له من ذات انفسهم ومن ذات أبدانهم مايستطيعون ليتخففوا منه ، وليخلصوا من الحاحه البغيض وقد أدرك بعقله النافذ وحيلته الواسعة ضعف الاتراب والاساتذة فلم يزده ذلك الا تتبعا لهم والحاحا عليهم حتى اخافهم من نفسه وتسلط عليهم بهذا الخوف الذى اشاعه فى النفوس والقلوب

وكذلك انفق حياته فى المدرسة الابتدائية والثانوية متهالكا لايكاد يستقل ، منتفعا لا يكاد ينفع حتى اذا أتم الدراسة الثانوية ، ووجد عملا فى بعض الدواوين تتبع زملاءه ورؤساءه بمثل ماكان يتتبع به

الرفاق والاساتذة من التهالك والالحاح ، والغريب انه بلغ فى الديوان مثل ما بلغ فى المدرسة من اكراه الزملاء والرؤساء على ان يقبلوه ويحملوه وينفعوه، يريد بعضهم بذلك ان يتخف من عبء ثقيل ويريد بعضهم بذلك ان يخلص من هم متصل ، وصاحبنا يرى هذا كله ويقدر هذا كله ، ولا يحفل من هذا كله الا لشيء واحد هو ان يتهالك على الزملاء والرؤساء لينتفع ويستفيد . وما يعنيه ان يحبه هذا او يبغضه ، وما يعنيه ان ينفعه هذا استجابة للخير او اتقاء للشر .

كل هذه أمور لا تشغله ولا تؤثر فى نفسه كل التأثير، هو ان ينتفع مهما يكن المصدر الذى يأتيه منه النفع ، ومهما تكن البواعث التى تدفع الناس الى ان ينفعوه

وقد قلت انه لم يكن ذبابا غافلا وانما كان ذبابا عاقلا ، ويجب ان اقول انه كان ذبابا ذكيا ايضا ، فكان يحسن الانتهاز للفرص والانتفاع من الظروف. ولم يكن - ولا سيما بعد ان تقدمت به السن - يهجم على فريسته كما يهجم الذباب فى غير حيلة ولا تلطف ولا احتياط ، وانما كان يدبر امره تدبيرا لطيفا خفيفا فيتواضع ويتضاءل حتى يخيل الى الزميل او الى الرئيس انه الخادم المطيع الذى لا يحب الا ان يكون عندما يريد منه . فهو يسبق الزميل او الرئيس الى ما يظن انه يرضيه والى ما يقدر انه يسره ، ولا تسالى عن تلطفه فى القول وتظرفه فى الحديث وحسن سعيه الى القلوب ، فاذا بلغ من رضى الزميل او الرئيس ما يريد، لم يعرف كيف ينصرف عنه ، وانما تهالك والح فى التهالك ثم طلب والح فى الطلب حتى يكره الزميل او الرئيس على ان يبلغه من الامر ما يريد، ليخلص من هذا التهالك ويستريح من هذا الالحاح

وتستطيعين يا سيدتى ان تتبعى سيرته فى الدواوين فسترينها رائعة حقا وسترينها مؤذية حقا ، واى غرابة فى ان تجمع سيرة

الرجل الواحد بين الروعة والايذاء، وليست الروعة مقصورة على ما يعجب ويروق ولكنها ايضا تكون فيما يؤذى ويسوء

وقد عرف صاحبنا من خصال الرؤساء فى الدواوين ايام شبابه الاول ميلهم الى ان يتتبعوا اخبار المرؤوسين ويستقصوا اسرارهم ويستكشفوا سرائرهم، فاحسن انتهاز الفرصة السانحة والانتفاع بالظروف المواتية ، واصبح لكل زميل صديقا حميما وخليلا مداخلا يظهره من حياته على كل شيء وليظهر هو من حياة صديقه وزميله على كل شيء. ولكن زميله كان يعرف من حياته ما يعرف ثم يقف من هذه المعرفة . فاما هو فلم تكن هذه المعرفة عنده الا الخطوة الاولى. فاما الخطوة الثانية فهى التغيير والتبديل فيما عرف ثم نقل ذلك الى الرؤساء ليتحفظوا ويحتاطوا لانفسهم ولاعمالهم . وكذلك بلغ صاحبنا من التهالك المتجسس او من التجسس المتهالك ما كان يريد فارتقى فى المناصب والدرجات رقيا سريعا متصلا ، وظفر فى كل منصب شغله وفى كل درجة ارتقى اليها بما اراد من ثقة الزملاء، وحب الرؤساء، والغريب انه الى تهالكه وتجسسه والى عقله وذكائه قد اضاف خصلة عظيمة الخطر فى حياة امثاله وهى قوة الذاكرة وسعة الحافظة فلم يكن ينسى شيئا ولم يكن ينسى احدا ، وهو بهذه الخصلة قد استطاع ان يستبقى عهده بجميع الذين عرفهم وعمل معهم فى الدواوين المختلفة التى مر بها ، وفى المناصب المختلفة التى ارتقى اليها

وقد عرف من سيرته هو ومن تجاربه الخاصة مقدار ما كان يؤدى الى الرؤساء من خدمة بمداخلته للزملاء وتعرفه اخبارهم واسرارهم وتجسسه عليهم . وعرف فى الوقت نفسه مقدار ما انتفع به من هذه السيرة . وكان اذكى من رؤسائه وانفذ منهم بصيرة فقرر فيما بينه وبين نفسه حين واتاه الحظ واتيح له التسلط ان يتخذ لنفسه الجواسيس الذين ينقلون اليه الاخبار ويظهرونه على الاسرار كما كان هو جاسوسا ، ولكن بشرط الا ينفع جواسيسه

كلمة الذين استخدموه . وربما كان مصدر هذه الخطة التى اتخذها لنفسه انه كان اثرا يرى ان النفع يجب ان يكون مقصورا عليه لايتجاوزه الى غيره، وربما كان مصدر هذه الخطة انه كان معتدا بنفسه يرى ان واحدا لن يحسن التجسس كما كان هو يحسن التجسس للرؤساء ، وربما كان مصدر هذه الخطة انه كان يرى ان التجسس خصلة وضيعة لايستحق اصحابها مكافاة ولاحياة، لا ان تقترن ببراعة ممتازة كبراعته وذكاء متفوق كذكائه وشخصية نادرة كشخصيته ، والا ان يكون الغرض منها هو تمكين هذه البراعة الممتازة والذكاء المتفوق والشخصية النادرة من ان تؤتى ثمراتها فترقى بهذا الانسان الفذ الى حيث ينبغى له من النجح والتفوق والامتياز وليس هذا الانسان الفذ الا شخصه الذى عرف كيف يذلل العقاب ، ويقهر الصعاب، وينفذ من الخطوب ويعيث بهذه العقول الكثيرة التى عبث بها منذ كان تلميذا صبيانى المدرسة الابتدائية ، الى ان اصبح موظفا كبيرا يامر فلا يخالف عن امره احد وينهى فلا يتجاوز حدود نهيه احد ، وربما كان مصدر هذه الخطة كل هذه الامور مجتمعة والشىء الذى ليس فيه شك هو ان يزدرى التجسس والمتجسسين اشد الازدراء ، ويستغل التجسس والمتجسسين اشد الاستغلال ، وينظر الى الحياة والاحياء نظرة غامضة تدل على النبوغ الذى لاشك فيه لانها تصور خصلتين اثنتين لاتوجدان الا فى نفوس النوابغ والافذاذ ، الاولى ايمانه بنفسه الى غير حد، والثانية احتقاره لغيره الى غير حد. واذا اجتمعت هاتان الخصلتان فى نفس رجل واحد كان خليقا ان يرى نفسه غاية الغايات وغرض الاغراض، وان يقتنع بان العالم لم يخلق الا له . ولم يوقف الا عليه وان ينتهى به الامر الى غرور بغيض

قالت السيدة وكانت اديبة اريبة صدق الله العظيم « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب »

كتب قيمة بقروش زهيدة

صدر منها حتى الآن :

١ ـ **آبار فى الصحراء** ـ مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى

٢ ـ **الضاحك الباكى** ـ احاديث عن الثورة المصرية لفكرى أباظة باشا

٣ ـ **الف ليلة الجديدة** ـ اخراج جديد لهذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

٤ ـ **نساء من خزف** ـ مجموعة من القصص المصرية للاستاذ سعد مكاوى

٥ ـ **صندوق الدنيا** ـ صور فكهة لفقيد الادب الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

٦ - **فرعون الصغير** - مجموعة قصص مصرية طلية للاستاذ محمود تيمور بك

٧ - **الشرق والغرب** - مجموعة فصول طريفة للدكتور محمد عوض محمد بك

٨ - **قضايا الحب** - مجموعة من اغرب وامتع القضايا للاستاذ فائق الجوهرى المحامى

٩ - **جيشنا فى فلسطين** - تسجيل تاريخى لمعارك الجيش المصرى فى حملته لانقاذ فلسطين من الارهاب الصهيونى للصاغ السيد فرج

١٠ - **الف ليلة الجديدة** - المجموعة الثانية للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

١١ - **فى المرآة** - مختار المرايا فى السياسة الاسبوعية لفقيد الادب الشيخ عبدالعزيز البشرى

١٢ - **غاديات رائحات** - مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود طاهر حقى

١٣ - **صانع الحب** - مجموعة من القصص الواقعية للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ - **دموع وضحكات** - مجموعة قصص واقعية للاستاذ عباس حافظ

١٥ - **عندما تحب المراة** - مجموعة قصص مصرية للاستاذ حلمى مراد

١٦ - **حاجى بابا الاصفهانى** - عن جيمس موريه للاستاذ مرسى الشافعى

١٧ - **جرائم ومرافعات** - مجموعة من اشهر القضايا للاستاذ يوسف حلمى

١٨ - **الطريق الى السعادة** - عن الفيلسوف الامريكى لنك للصاغ ثروت محمود

١٩ - **موعد فى الجنة** - قصص واقعية عن الابطال الذين استشهدوا فى فلسطين للاستاذ حلمى سلام

٢٠ - **نجيب الريحانى** - دراسة وافية دقيقة للاستاذ عثمان العنتبلى

٢١ - **صور من الريف** - صورة صادقة لحياة الريف بما فيه من نعيم وشقاء ، ومسرات واحزان للاستاذ زكى عبد القادر

٢٢ - **الحب فى التاريخ** - اشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ سلامة موسى

٢٣ - **عشرة ايام فى السودان** - لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

٢٤ - **وراء القضبان** - لزعيم حزب مصر الاشتراكى الاستاذ احمد حسين

٢٥ - **مارد من الشرق** - صور من الهند للاستاذ احمد قاسم جوده مع فصول للاستاذ محمود ابو الفتح صاحب المصرى

٢٦ - **خبايا سياسية** - فصول طريفة عن اسرار السياسة المصرية بقلم الدكتور محمود عزمى

ثمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

DATE DUE

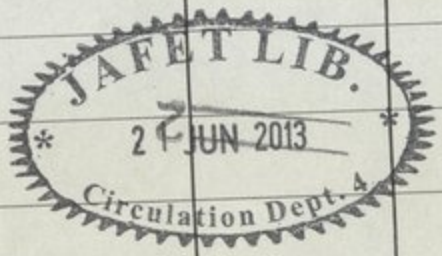

حسين ،طه
جنة الحيوان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037867

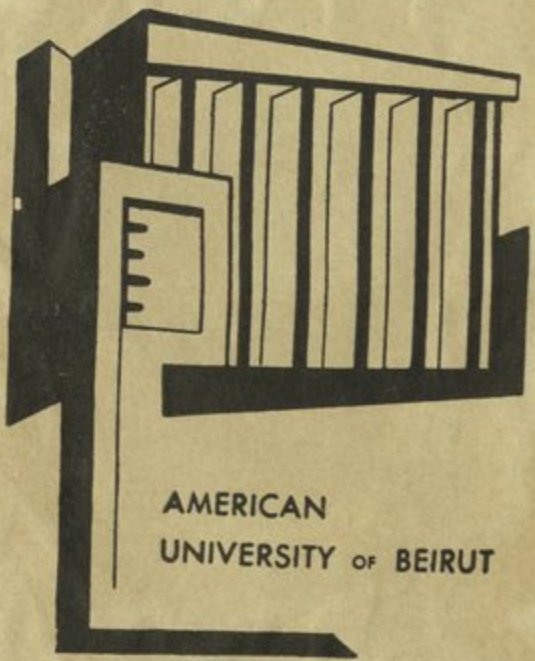

892.78
Ha3924°jnA
c.1